الأعمال الفكرية

جمـــال بـدوى

طبيعة الأمة المصرية

الهيئة المصرية العامة للكتاب

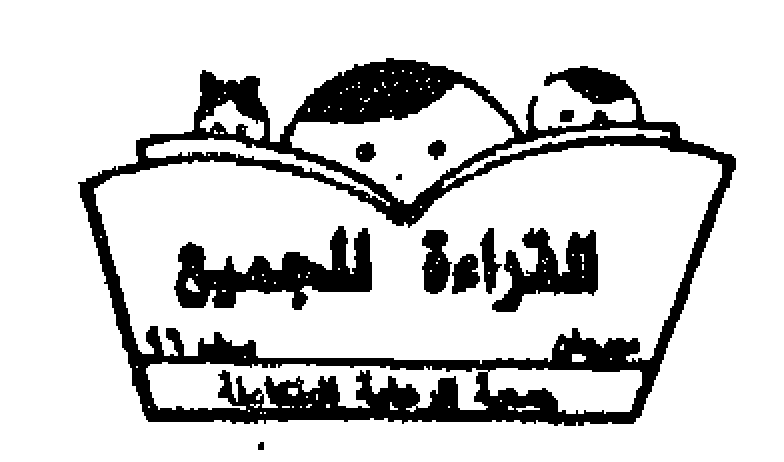
١٩٩٦

مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة

طبيعة الأمة المصرية

فى كتابات المفكرين



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

طبيعة الأمة المصرية
فى كتابات المفكرين
جمال بدوى

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

المشرف العام
د. سمير سرحان

طبيعة الأمة المصرية
فى كتابات المفكرين

جمال بدوى

علـــى ســبيل التقـــديم ٠٠٠٠

لأن المعـرفة أهم من الثروة وأهم من القـوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيـزة الأســاسية فى بنـــاء المجتمعـــات لمواكبة عصر المعلومـات ٠٠ من هنـا كان مهرجان القراءة للجميـع دلالة على الرغبـة الطمـوحة فى تنميـة عـالم القـراءة لدى الأسرة المصرية أطفـــالا وشـبابا ورجـالا ونسـاء ٠٠

وكان صـدور مكتبة الأسرة ضمن مهـرجان القراءة للجميع منـذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغـة الأهمية لهـذا المهـرجان كأضـخم مشروع نشر لروائع الأدب العـربى من أعمـــال فكـرية وابداعية وأيضـا تراث الإنسانية الذى شـكل مسـيرة الحضـارة الإنسانية مما يعتبر مواجهـة حقيقيـة للأفـكار المـدمرة ٠

هـكذا كانت مكتبـة الأسرة نافـذة مضـيئة لشـباب هـذه الأمة على منـافذ الثقـافة الحقيقيـة فى الشرق والغـــرب وعلى ما انتجتـــه عبقـرية هـــذه الأمة عبـــر مســـيرتها التنـويرية والحضـــارية ٠٠

ان مئـات العنـاوين وملايين النسـخ من أهم منـابع الفـكر والثقـافة والإبـداع التى تطـرحها مكتبـة الأسرة فى الأسـواق بأسعار رمزية أثبتت التجـربة أن الأيـدى تتخـاطفها وتنتظـرها فى منـافذ البيـع ولـدى باعة الصـحف لهـو مظهـر حضـارى رائع يشـهد للمواطن المصرى بالجـدية اللازمة والرغبـة الأكيـدة فى الإسـهام فى ركب الحضـارة الإنسـانية ويأخـذ مكانه اللائق بين الأمـم فى عـالم أصبحت السـيادة فيـه لمن يملك المعـــرفة وليس لمن يملك القـــوة ٠٠

د ٠ ســمير سرحان

تظل الشخصية المصرية موضع اهتمام الباحثين ، وليس هذا بمستغرب على شخصية تكونت عبر آلاف السنين · وتوفرت لها عناصر ومكونات فريدة حتى امتزجت وانصهرت فى سبيكة يصعب فهمها دون تحليلها الى عناصرها الأصلية ، فهى بحر عميق يغرى كل غواص وباحث بالاقتراب منهـا ، ولكنـه يتطلب جهدا مضنيا ودراسـة متعمقة فى أبعـاد الزمان والمكان ، فالزمان الذى قطعه المصرى فى مشـــواره الطويل يضرب بجذوره فى عصور ما قبل التاريخ المكتوب ، والمكان الذى عاش عليه المصريون على ضـــفتى النهر الخالد وعلى تخوم الصحراء المجدبة ، هو المشيمة التى تخلقت فيها المعتقدات والأخلاق والعادات والتقاليد التى ظلت تشكل الكيان الثقافى للشخصية المصرية ، وهو التربة التى نبتت فيها أقدم حضارة فى تاريخ الانسان ·

وما أكثر الدراسات التى حاولت تفسير الشخصية المصرية ولكن ما أكثر الظلم الذى حاق بهذه الشخصية فى كتابات الكاتبين الغربيين الذين كان لهم فضل السبق فى هذا النوع من الدراسات ، ولكن ما أقل حظهم من العدل والانصـــاف ، فالوداعة المصرية فى نظرهم جبن وخور وخنوع ، والصبر المصرى الطويل فى رأيهم هو صـــبر المستكين المستسلم للظلم ، حتى قالوا ان مصر هى مهد الطغيان ، والنكتة المصرية المشهورة هى عندهم وســيلة الهروب والعجز عن مقاومة الظلم ، فاذا ثار المصريون وتمردوا على الطغيان واجهـوا تهمة الجحود ونكران الجميل ·· جميل حكامهم الظالمين

سواء كانوا مصريين أو أجانب ومن المؤسف أن هذه الأفكار ، التى تسعى الى هدم الروح المعنوية وفقدان المصريين ثقتهم فى أنفسهم ، تسربت الى كتابات نفر من المصريين ولعوا بقبول كل ما تسطره أقلام الغربيين وكأنه تنزيل من التنزيل ، ولم تتعرض هـذه الأقاويل للتمحيص كى ندفع عن الشخصية المصرية غائلة التجنى والبغى ، ونعيد لها اعتبارها ، ليس عن طريق المبـالغة فى الاطراء ، ولكن بمقياس الموضـوعية الذى يتوخى العدالة والأمانة فالباحث الأمين لا يغفل العيوب فى الشخصية المصرية مثلهـا مثل أى شخصية انسانية ، ولكنه ينظر الى هذه النقائص فى سياقها العـام داخل الاطار الشامل للشخصية ، فربما بدت له النقائص على شكل يختلف عنه فى حالة النظرة السطحية أو الحاقدة أو المتعجلة ٠

من أجل هذا رأيت أن أقدم الى القارىء الكريم هذه الدراسة التى كتبها عباس محمود العقاد فى مقدمة كتابه عن الزعيم سـعد زغلول ، وسوف يجد القارىء فيها كيف اجتهد الكاتب العملاق فى سبر أغوار الشخصية المصرية ، وتتبع مكوناتها التاريخية ، وتفسير الظواهر الخلقية والاجتماعية والسياسية ٠ وانى على ثقة بأن القارىء الكريم سـوف يجد فى هذه الدراسـة العميقة اجـابة شافية على التساؤلات التى لا تزال تتردد حول الشخصية المصرية :

لعلنا لا نلخص الأمة المصرية فى كلمة هى أوجز وأصدق وأجمع من وصفها بصفتها الجغرافية التاريخية المتفق عليها ، وهى أنهـا أمة طويلة التاريخ قديمة عهد بالمدنية فى أرض زراعية ٠

فهذا الوصف الوجيز البين يجمع من أوصافها كل شىء ولا يند عنه شىء ، واذا توسعنا فى تفصيله واستنباط دخائله كان كفيلا أن يفسر لنا أخلاقها وعاداتها ، ويوضح لنا غرائبها ونقائضها ، ويرد كل خصلة من خصالها وكل طور من أطوارها الى النصاب المحكم والوضع الصحيح ٠

فالأمة المصرية ليست أمة بداوة تتوثب الى الحرب ، لأنهــا باب الرزق وطريق السلامة من الجار المعتدى أو الجار المخيف ، ولكنها أمة حضارة مستقرة ومعيشة منتظمة تلجأ إلى الحروب حين تلجأ اليها ، لأنها ضرورة لا محيص عنها ونكبة لا تستهين بها الا اتقاء لنكبة أكبر منها ، وأصعب عاقبة من عاقبتها •

وهى لا تطيع حكامها كما يطيع البدوى زعيمه ، أو كما يطيع العسكر قائده : الى الحرب يا رجال ! فاذا الرجال كلهم على أهبة القتال •

وانما هى أمة توارثت العقــائد والمأثورات جيلا بعد جيل ، واصبح لها من بعض تلك العقائد تراث تصــونه فوق صــيانة المصلحة ، وتغار عليه أشد من غيرتها على المال والثروة ، ثم هى أمة ذات أرزاق مطردة ومعيشة مستقلة لا يعنيها صلاح الحاكم كما يعنيها صــلاح الأرض والسماء والعوارض والأجواء ، فاذا دعاهــا الحاكم الى حرب لا تعنيهــا فذلك شأنه وليس بشأنهــا ، وتلك خسارته وليست بخسارتها ، أما اذا أصيبت فى عقائدها وموروثاتها أو ظهر لهــا الجور على أرزاقهــا ومرافقها فهناك يستعصى قيادها كأشد ما يستعصى قياد أمة ، وهناك تصمد للحرب كما يصمد لها المقاتل المجبول عليها • ولسعد زغلول رحمه الله كلمه بليغة فى هذا المعنى قالها لانجليز فلمست من نفوس أذكيائهم جانب الحصــافة وجانب الفكاهة فى لمحة واحدة ، وجاءت فى موقعها وأوانها لأنها قيلت على آثار الحرب العظمى ، أيام كان تحضير الأرواح شغلا شاغلا لكل من فقد عزيزا أو شك فى دين ، قال رحمه الله : « اننا لو استحضرنا اليوم روح يوليوس قيصر وسألناه عن الأمتين اللتين جشمتاه أكبر العناء وحرمتا عليه الراحة ، لقال لنا : انما هما المصريون والانجليز» •

وتلك كلمة حق من كلماته التى تقرب البعيد ، وتجمع الأطراف المتفرقات فى حروف معدودات •

ولا شك فى ان هذا الخلق الذى امتزج بالفطرة المصرية هو باعث الحاكمين جميعا الى مجاملة الامة فى عقائدهـا والحذر من المساس بموروثاتها ومألوفاتهـا ، فمن لم يفطن من الحاكمين لهذه السياسة الرشيدة لم يعرف الراحة معها فى سياسة اخرى ، ولم يأمن أن يزول حكمه ويفسد الأمر عليه فسادا لا صلاح بعده ، وكثيرا ما انتهت المجاملة بالحاكمين الى التدين بالدين المصرى والتخلق بالأخلاق المصرية ، اذا كانوا من الغرباء ·· وقد حارب المصريون فى جيوشهم المنظمة ولقوا فى حروبهم أعـداء ذوى بأس كالترك والعرب والروس ، فكانوا مثلا فى الشجاعة والنظام ، ولم يقل عدو قتال ولا عـدو جنس انهم نكلوا عن مواقف الثبـات والاقـدام ولو أحصيت الثورات فى تاريخ مصر القريب لما كانت فى عددها دون ثورات الأمم التى اشتهرت بالتمرد ، ولم تشتهر بالاستسلام ، فقـد ثار المصريون على الرنسيين ، وثـاروا على الترك والمتتركين ، وثاروا على الانجليز فى نحو قرن واحد ، وكان للعقيدة والموروثات فى معظم هذه الثورات دخل أظهر من دخل المصلحة والمرافق القوميه أو الفردية ·

حب الأسرة :

وقدم العهد بالمدنية يتلخص فى حب الأسرة واستقرار النظام البيتى على أساس بعيد القرار · فنحن لا نستطيع أن نفهم كيف يكون المصرى محافظا شديدا فى المحافظة ، ثائرا متأهبا للتمرد ، الا اذا فهمنا حبه للأسرة وحبه من أجل ذلك للموروثات والتقاليد ·

● فهو محافظ كما تحافظ جميع الأسرات على تراثها وهو من أجـل المحافظة على التراث مستعد للثورة أبدا لصـيانة موروثاته وتقاليده · وقد يبدو غير معقول فى ثورته وهياجه ، لأن العهد بالنـاس أن يستغربوا الثورة من المحافظين والمقلدين ، ويزيدهم

استغرابا لها ألا يجدوا تفسيرا لها من خوف الضرر على المصالح والمنافع . فيقولون مدهوشين : أمثل ذلك الشعب الوادع المستقر يثور هذه الثورة لمثل هذا الضرر اليسير أو لغير ضرر على الاطلاق ؟ والواقع أن الذى يثور هذه الثورة غالبا هو المحافظ المغرق فى المحافظة ، لأنه لفرط محافظته ينسى المصلحة فى سبيل العادات ولطول الكبت أثر فى هذا الجنوح الى التمرد كلما سنحت الفرصة التى تنطلق فيها الغرائز وتخرج فيها على القيود . فالمصرى يستمتع بهذه الفرصة ويسترسل فيها الى أمد بعيد ، لأن كبت العادات وكبت الخضوع الأعمى أمران لا يطاقان الى زمن طويل ، فاذا سنحت المناسبة فقد يكون الكبت الذى تعانيه النفس من العادات الطويلة سببا من أسباب التمرد والشذوذ ، وتلك نقيصة فى النفس الانسانية تظهر أبدا مع كل افراط وكل استغراق .

ان المصرى لينسى كل شيء الا وشائج الرحم وآداب الأسرة ، وقد يسف المجرم اسفاف الخبث والنذالة ، أو يسف المسكين اسفاف الضعة والمتربة ، لكنه لا يزال فى صميم نفسه ذلك الخلف المنحدر من أجيال وراء أجيال ، عاشت جميعا فى ظل الأسرة ، ودانت جميعا بآداب العرف الاجتماعى والعلاقات البيتية والأخلاق المصطلح عليها .

راقبت هذا الخلق فى نفوس العلية والسفلة ، وفى نفوس الشرفاء والمجرمين ، فوجدته على قرار مكين فى جميع هؤلاء . وأردت ـ وأنا فى السجن ـ ألا يفوتنى سبر هذا الخلق فى طبائع اللصوص والفتاك والمخاتلين والأنذال ومدمنى الخمر والسموم ، فاذا هم كلهم « بيتيون » فى طوية النفس ما يتمردون على القانون والفضائل والعظات ، ثم يقف تمردهم عند حدود العلاقات البيتية ، والعواطف التى تأصلت بين الأعمار والأسنان على حكم الأبوة والبنوة والاخاء والقرابة ، فى الأدهار بعد الأدهار ، فقلما يخطو التمرد خطوة وراء تلك الحدود .

رأيت مرة طفلا صغيرا من الأطفال الذين يودعونهم سجن مصر ريثما ينقلونهم الى سجن الأحداث فى الجيزة ، وكان هذا الطفل مع أقران فى سنه ينتظرون الترحيل فى فناء السجن المعرض لأنظار الرؤساء والسجانين ، فمر به سجين من العائدين فى جريمة السرقة ، فرفع الطفل رأسه وناداه فى لهجة المسكنة الطبيعية التى يشعر بها الصغير فى غيبة أهله : جوعان ! فتمهل اللص العائد وقال له : وماذا أصنع لك يابنى ؟ وانصرف أسفا فظننته لا يعود ولا يفكر بعد ذلك فى الطفل المستغيث ، ولكنه ما لبث أن عاد بعد دقائق ومعه رغيف سرقه من المخبز فقسمه نصفين وأعطى الطفل نصفه واستبقى لنفسه النصف الآخر ، ولو ضبطوه وهو يسرق الخبز لما نجا من الجلد الأليم أو من السجن على انفراد ٠

ورأيت رجلا شيخا نازلا من درج المستشفى ، وهو لا يقوى على الحركة ولا يجد الممرض الموكل به من يقوى على حمله ، وكان على مقربة منه يافع لم يتجاوز السادسة عشر ولا يدل مرآه على شبع ولا على صحة سليمة ، فشق عليه أن يبصر الشيخ المريض يتعثر فى خطاه ويئن من وجعه ، وتقدم اليه فحمله ومشى به على جهد شديد حتى أعياه حمله ، دون أن يكلفه الممرض ذلك ، أو يخطر له أنه قادر على هذا العبء الفادح ليافع مثله ٠

وتلاحى شيخ فان وفتى عارم مشـــهور بالشر والعربدة فى السجن وفى الحى الذى يعيش فيه ، فسبه الشيخ سبا لا يطيقه من أنداده ولا يأمن من يسبه به أن يستهدف لضربة قاســـية ، فما صنع الفتى المسبوب الا أن بدا عليه الدهش والتردد لحظة ، ثم هز رأسه وقال لمن حوله : « انظروا الى الرجل الشائب يعيب ولا يخجل ، وقال للرجل الشائب : « لو غيرك قالها لقتلته ، ولكن ماذا عسى أن أعمل لك وأنت أكبر من أبى ؟ » ٠

حنان الأمومة :

ومن المشاهدات المألوفة فى طرقات مصر أن ترى بائعا فقيرا يصطحب ولده الصغير ليأنس بصحبته ويخفف أعباء السعي والكدح برؤيته ومناغاته • ومن سائقى مركبات النقل من لا يخرج لشغله الا ومعه ولده يجلسه فى مكان القيادة • ويتعجل الفرح بنموه وقيامه مقام الرجال فى أشغال معاشه • وأذكر أننى رأيت فى بعض المنازل التى سكنتها طفلا لا يتجاوز الخامسة يقيم عند أبيه الخادم فى المنزل بمعزل عن أمه التى تقيم فى بلدتها مغضبة من زوجها ، فرثيت لطفل فى هذه السن يفارق أمه ويحرم حنان الأمومة وهو فى أشد الحاجة اليه ، ولكنى لم ألبث ان رأيته موضع عناية الخدم والباعة فى الشارع كله ، يلاطفه كل خادم أو بائع يعبر الطريق ويسألون عنه ليضاحكوه ويلاعبوه ، حتى أصبح « مدلل » الشارع وألعوبته الحية ، وحتى ألف المقام وطابت له هذه الغربة ، وطفق بعض أصحابه الكبار يضايقونه بذكر البلد والسفر اليه فينفر أيما نفور •

مقام المرأة الشرقية :

وقد أنكر الغربيون ما أنكروا من مقام المرأة فى الحياة الشرقية وقاسوا كلامهم عنها بمقياس الحقوق المدنية أو الحقوق السياسية التى كثرت حولها الجعجعة بينهم على غير طائل ، ولكن الذى نعرفه نحن ويعرفه كل مطلع على أحوال البيئة المصرية أن مقام الأمومة فيها مكلوء الجانب مرعى المكانة فى البيوت كافة والبيئات قاطبة •

وأن الأم المصرية تنعم بين أبنائها وآلها بمنزلة يغبطها عليها الأمهات فى بلدان المغرب والمشرق فالأسرة عظيمة الشأن فى آداب المصريين من أقدم عصور التاريخ ، ولن يتجرد المصرى من عواطف الأرحام بين أبوة وأمومة وبنوة وقرابة وأصرة دانية أو

قاصية ، وذلك هو قوام العرف الاجتماعي في أخلاقه وعلاقاته ، وهو أيضا قوام المحافظة المصرية التي تحب الألفة وتعرض عن البدع والخوارق والوصايا باتخاذ الأسرة معروفة في الأدب المصرى منذ آلاف السنين • ففى وصايا (فتاح حوتب) التى كتبت قبل أكثر من ستة وأربعين قرنا يقول الوزير لتلميذه : « اذا كنت رجلا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا وأحبب قرينتك الحب الجميل ، وأطعمها واكسها ، وأدخل السرور على قلبها طول حياتها » •

ولم تنس الوصية بتوقير الأسرة وصلة الأرحام بعد ذلك كلما كتبت الوصايا فى العهد القديم ، ففى نسخة من وصية محفوظة فى مخطوطات الأسرة الثانية والعشرين يقول الحكيم : « اتخذ لك زوجه فى شبابك لتنجب لك ولدا تربيه وأنت فى صباك ، وتعيش حتى تراه فى عداد الرجال • وما أسعد الرجل الذى له عشيرة كبيرة : ان الناس يوقرونه من أجل بنيه » •

وفى هذه الوصايا يقول الحكيم : « ضاعف لأمك خبزها ، واحملها كما حملتك ، لقد أثقلتها وما نبذتك ، وظلت تحملك حول عنقها بعد ميلادك ، وظل ثديها ثلاث سنوات فى فمك ولم تأنف من تنظيفك ولم تقل قط : ماذا أصنع بهذا ؟ وأرسلتك الى المدرسة تتعلم الكتابة ، وقفت لك بالخبز والشراب كل يوم تنتظرك • واذكر اذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف ربتك وتعهدتك بكل ما عندها من وسيلة ، لم تصبك بضرر ، ولم ترفع يديها الى الله بالدعاء عليك ، ولم يستمع الله منها الى شكاية » •

فهذه الرحمة البيتية قديمة لم تتغير فى الزمن الحديث • ومن عظم الرافة بالبنين أن يمتد زمن الرضاع لهم الى ثلاث سنوات كما يفهم من هذه الوصية ، وان الرأفة فى تلك الأجيال السحيقة لغريبة ولو كانت رأفة الآباء بالبنين •

ومن الأخلاق التى تلازم حب الأسرة ومتانة الوشائج البيتية غيرة الزوجية وصيانة العرض واستهجان التفريط فيه لبلوغ مأرب

واتقاء سطوه ، فيروض المصرى نفسه على الضنك والرهبة ، ولا يروض نفسه على بيع العرض وابتذال البيت • وينبغى هنا التفريق بين عرض وعرض والتمييز بين غيرة وغيرة ، فان البدوى مثلا ليابى أن يبذل عرضه ، ويثور على من ينتهك حرمه ، ولكنه يأبى ذلك كما يأبى أن يداس عليه مرعى الابل ومورد الماء • ويغضب للزوجة وكأنه يغضب فى منافرة أو مصاولة ، لأن اعتداء الغير على زوجته هو عنده بمثابة هزيمة فى حرب أو نكوص فى مجال صراع • أما المصرى فغيرته على عرضه من نوع آخر ولعلة أخرى : اذ هو يغار على الزوجة اعتزازا بصداقة متينة وأرحام أمينة ، وضنا بملاذ ألفة وسكينة ، ومأوى سعادة وطمأنينة ، وانه ليغضب للزوجة وكأنه يغضب لقرابة تقطع أو محراب يهان ، وهذا هو الفرق بين الغيرة التى منشؤها أدب الأسرة والغيرة التى منشؤها أدب القتال •

موقف المصرى من الحكومة :

فالمصرى اجتماعى من ناحية الأسرة وعراقة المعيشة الحضرية ، أو اجتماعى من ناحية انتظام العادات والعلاقات منذ أجيال ممتدة على نظام الأسر والبيوت ، وهذا هو أقوى ما يربطه بالمجتمع أو يربطه بالأمة والحياة القومية •

وهو ارتباط أقوى فى نفسه جدا من ارتباط النظام السياسى والمراسيم الحكومية • فلم تكن الحكومة فى تلك الأزمان الطويلة لتمتزج بنفسه قط امتزاج الألفة والطواعية والمعاملة المشكورة • بل ربما كان صدوره عن الحكومة مما ضاعف اعتماده على الأسرة ، وحصر عواطفه الانسانية فى علاقاته البيتية ، لأنها ملجأ خفيض ومهرب أمين من القسوة والمظالم • وغاية ما يخامره من أمر الحكومة أنها شىء يدارى ما استطاع له المدارة • ويستفاد من سطوته وجاهه ما تيسرت الفائدة ، ولا بأس بارضائها بالهدايا والمجاملات فى غير حفيظة ولا استكراه ، ولا عجب فى هذا الشعورالمبهم فى زمن كان

الناس فيه يعبدون آلهة الشر ويتزلفون اليهما بالصلوات والقرابين ٠

فعلاقته بالحكومة على الأغلب الأعم هى علاقة عداوة مريبة او مهادنة محتملة ، لم تبلغ أن تكون علاقة ود يحرص عليه أو ضمان يحميه الا فى الندرة التى لا يقاس عليها ٠ ومن ثم كان محافظا ومتحفزا للتغيير فى وقت واحد ، أو كان محافظا فى مسلكه الذى يدور على أصول الأسر وعلاقة الرحم ، متمردا فى مسلكه من ناحية الشئون السياسية والمسائل الحكومية ، ومتى جد عليه جديد الاصلاح فلن يفلح عنده لن يظفر منه بالترحيب والمرافقة الا ساعة يمتزج بنظام البيت والأسرة ، ويتسرب الى حياته من باب عواطف الأرحام ومناظرات المنازل ، والا فلا أمل لاصلاح فى توفيق ٠

لكن لا ينبغى أن يفهم من هذا أن المصرى ضعيف الاهتمام بالسياسة ٠ أو أنه مصدوف عن تتبعها واستطلاع أخبارها ومجرياتها ، أو أنه قليل البصر بمداخلها ومخارجها ، فان الواقع قد كان على خلاف ذلك بل على نقيضه فى عصور كثيرة ، والمشهور عن المصريين أنهم من أشد الأمم شغفا بأحاديث الدول وعناية باستطلاع أحوال الحكومات ٠ وقد يسرى بينهم شعور ملهم بدخائل الأغراض الخفية واتجاه الخير واتجاه الشر فى الخصومات السياسية ، لما تعاقب عليهم من التجارب ، وتوالى على أسماعهم من أحاديث الصاعدين والهابطين المقبلين والمدبرين ، فاذا قيل انهم اجتماعيون من قبل الأسرة وليسوا باجتماعيين من قبل الحكومة ، فليس معنى ذلك أنهم لا يشتغلون بالسياسة ولا يأبهون لحديثها ، وانما معناه أن اشتغالهم بها فى العصور القديمة لم يكن يتعدى جانب التحرى والاستطلاع الى جانب الخلق والتكوين ٠

واذا بدا على المصرى أحيانا أنه ينقاد فى السياسة فليس معنى ذلك أنه لا يفهم ، بل معناه أنه ينقاد ، لأن الطاعة أشبه بنظام

الأسرة من جهة ، ولأن أزمنة الركود الطويلة من جهة أخرى ليس من شأنها أن تبعث روح الابتداء والاقتحام ، فالبقاء في الصفوف أيسر عنده من التفرد باعتساف الطريق ، وهو حتى في ثورته يريد أن يرى الصفوف حوله ولا يريد أن يعتسف الطريق وحده ، وكلما غلبت فيه نزعة الابتداء والاقتحام بغلبة الحرية والاستقلال ، قلت فيه عادة الانقيـاد الاجتمـاعى ، أو قل فيه النفور من المخاطرة والانفراد .

الصـبر المصرى :

فى تحليله لطبيعة الأمة المصرية يتطرق عباس محمود العقاد الى بدايه الفكر الدينى عند المصريين القدماء ، وما اتسمت به العقيدة الدينية من هدوء وعذوبة مما خلصها من لوثة العصبية العمياء ، وسلم تاريخ مصر كله من المذابح الطائفية والضغائن الدينية ، ويرفض العقاد اتهام المصرى بالكسل والركود ويحلل سبب ارتباط المصرى بأرضه وكراهيته للهجرة ، ويفسر أسلوب المصرى فى خصومته وكيف أنه لا يتعجل الشر ولا يهرع الى الانتقام ، وانما يؤثر الصبر على خصمه حتى يطيح به القدر ، ويشرح باسهاب علاقة المصرى بالحكومة وكيف أنه لا يشعر بالنظام السياسى كما يشعر بالأسرة ، ولا يعيبه الخضوع للحكومة كما يعيبه الخضوع لخصوم أسرته ، ويحلل العقاد النكتة المصرية التى عرف بها المصريون منذ الزمن القديم حتى عصرنا الحالى ، ويرى أن المصرى ميال بطبعه الى المزاح بحكم لياقته المستفادة من قدم الحضارة وبحكم الحوادث التى ألجأته الى التخفيف وقلة الاكتراث ، والنكتة عنده تهدف الى ادراك النقائض والتركيز على المفارقات ، أما التهكم فهو مصبوب على الجلافة والغفلة ، لأن مثال الكمال عند المصرى أن يكون الرجل واعيا فطنا يرفض الخداع ويزدرى المراوغة ويسخر ممن يقع فيهما (تذكر قصة بيع الترام وميدان العتبة) لأن الحوادث والمظالم أحوجته الى الحيلة وحسن التخلص

والحذر والكياسه ، ومن المفارقات التي لفتت نظر العقاد آن النكتة المصرية والنسك المصرى أخوان توأمان ·· ذلك أن النفس المصريه التى أرهقتها الحضارة لا تستغنى عن ملاذ تسكن اليه كلما اشتد عليها الجور والظلم ، فان تغلبت الصرامة وقلة الصبر على الفساد ، جنح المصرى الى النسك والزهادة وعمد الى الرهبانية والدروشة وقد حدث ذلك فى عهود المسيحية والاسلام ، أما اذا سنحت فرصة التمرد والانقضاض فالثورة ملاذه الأخير ·· تلك بعض ملامح الشخصية المصرية كما انتهى اليها الكاتب العملاق عباس محمود العقاد فى هذا الجزء الثانى والأخير من دراسته عن طبيعة الأمة المصرية :

مما لا شك فيه أن الحضارة المصرية كانت منذ عهد عهيد حضارتين متجاورتين : احداهما لأصحاب السـيادة ، والأخرى للمسودين الخاضعين ، وقد زعم بعض المؤرخين أن السادة والمسودين كانا جنسين مختلفين وعنصرين مستقلين ، وحديثا رأينا أن ذوى السيادة بين المصريين كانوا من بلاد شتى وأجناس عديدة ، بعضهم ترك وبعضهم عرب وبعضهم غرباء من صنائع الفريقين ، وبعضهم مصريون من أصحاب النباهة واليسار ، ويجب أن يحسب لذلك حسابه فى اختلاف المشارب والأخلاق وتباين الميول والملكات ، الى أن يتم مع الزمن امتزاج هذه العناصر كما امتزجت عناصر غيرها ، فى كل فترة من فترات التاريخ ·

والذهن المصرى العريق ذهن عملى واقعى سهل المنطق واضحه فى نظرته الى الدنيا وحكمه على الأشياء والناس ، شأنه فى ذلك شأن أبناء الأمم الزراعية عامة ·

فالأرض والغلة والنيل والفيضان كلها من الوقائع المحسوسة المطردة فى قياس العقل بغير توثب فى خيال ولا جماح من خاطر ، وهى تتصل بعالم الغيب اتصالا بسيطا لا يحوج صاحبه الى التخيل

والتغلغل ، وانما يحوجه الى التدين والايمان والانتظار فى شىء من التسليم • ثم يتوطد الايمان والتســـليم مع توطد الكهانة وتوطد الموروثات والعادات ، فيسلس ماجمح ، ويستقر ما اضطرب ، ويجرى على نمط هادىء من التفكير والنظر المحسوس • ولهذا خلق المصرى القديم عالمه السماوى فخلقه عالما أرضيا آخر على غرار هذا العالم الأرضى المشاهد بالعيان ، يأكل فيه الانسان ويشرب ويستعد له بزاد من طعام هذه الدنيا وبمتاع وأنية من متاعها وأنيتها ، ويحتفظ له بجسده من العطب ، لأنه سيعيش هناك كما عاش هنا ، ويكون بعد الموت كما كان فى الحياة •

ولهدوء العقيدة المصرية واستوائها ، وحضــارة الأمة التى تعتقدها ، وعذوبة طبعها وايناس عشرتها قد سلم الدين فى مصر من لوثة العصبية العمياء وقسوة الهمجية الرعناء •

وسلم تاريخ مصر كله من المذابح الطائفية والضغائن الدينية ، الا أن يتسلل اليها ذلك من طائفة غريبة أو نحلة دخيلة • وقد سلم الدين المصرى من لوثة الضحايا البشرية كما سلم من لوثة التعصب والضغينة ، فلم تؤثر عن المصريين فى أقدم عهودهم شعائر التضحية بالآدميين ومناسك التعطش الى الدماء • وكل ما حدث من التضحية الآدمية فى عهود التاريخ القديم فانما هو الفتك ببعض الأسرى قبل أن تفرض حماية الأسرى فى آداب الحروب ، ولا يحسب هذا من الشعائر أو المناسك التى يفرضها الدين ويجرى عليها عرف المعابد والكهــان •

والمصرى عملى فى حياته كما هو عملى فى النظر الى الحياة ، يخطىء كنهه من يرميه بالكسل ، ويجهله كل الجهل من يعزو اليه الركود وبغض الحركة : نعم انه يألف أرضه ، ويسكن الى تربة وطنه ولا يخلف الى هجرتها كما يخف الى الهجرة سكان البلاد التى لا صلة

فيها بين المرء وتربة وطنه ومعاهد بلاده • الا أن عذره فى ذلك هو عذر جميع الأمم التى تعيش من الزراعة ، وتتصل العلاقة بينها وبين أرضها ونباتها ؛ فأما أنه يعمل ويصبر على العمل فتلك خصلة مشهودة يراها فيه رأى العين كل من شاهد الفلاح ينهض من الفجر للحرث والسقى والبذر والجنى فلا يفرغ من عمله قبل الغروب ، الا أن تكون غفوة القيلولة فى حمارة القيظ وهو يفعل هذا ويدمنه فى مواقيته ولو كان هو مالك أرضه وزارعها ، بلا تكليف من سيد أو مستأجر .

ولقد صبر المصرى على العمل والمشقة ، ولقد عودته المواسم الزراعية أن ينتظر كل شىء فى أوانه ، ويربط كل أمل بأجله ، فهو من ثم صبور طويل البال ، فيه أثارة من « القدرية » وانتظار الغيب وقلة استعجال المقادير ، وله فى هذا المعنى أمثال وحكم يتفق فيها عصر الفراعنة وعصر البخار والكهرباء أو يتفق فيها عصر الأناة وعصر السرعة والوثوب •

وشعار المصرى فى الخصومة : « اصبر على جار السوء يرحل أو تجىء له داهية » • فهو صبور مسالم لا يعجل بالشر ولا يتفزز الى الانتقام ، بيد أنه يصبر لينتقم ويصبر على المكايدة والنكاية كما يصبر ليرى عدوه راحلا عنه أو مصابا بداهية على يد غيره ، ومن الصبر وكتمان الغيظ ذلك اللدد الذى لا ينسى الخصومة ولا يقنع فى الثأر بما دون الاصماء والايجاع • وشأن الأسرة فى خصوماته كشأنها فى جميع عاداتها ، فان عداوات الأسرة ومنافساتها لهى التى تدفع به الى القتل وحرق الزرع وتسميم الماشية دون العداوات التى تغلب عليها الصبغة العامة ، فيندر أن يقع انتقام فاجع فى الريف خاصة الا لمحت فيه أن (ابن فلان) يثأر من (ابن فلان) •• وقلما يحدث أن هذا الفرد على حدة يثأر من ذلك الفرد على حدة ، بغير نظر الى القرابات والمناقشات •

وهنا أيضــا مجال نتبين منه الفرق بين تاصل الأخلاق الاجتماعية من ناحية الأسرة وتأصل الأخلاق الاجتماعية من ناحية النظام السياسى فى نفوس المصريين ، فالمصرى لا يحجم عن خطر فى سبيل الخصومات الأهلية من بذل المال الى بذل الحياة ، فاذا احتمل من الحكومة ما ليس يحتمله من غيرها فليس انصافا ولا تمحيصا ان ينسب ذلك الى الجبن والفتور ، انما الفرق الصحيح أو الفرق الأهم أنه لا يشعر بالنظام السياسى كما يشعر بالأسرة ، ولا يعيبه الخضوع للحكومة فى نظره أو نظر منافسيه كما يعيبه الخضوع لخصم بيته وأقربائه ، وما لم يتساو الأمران عنده لا يحق للمتصف أن ينسب احتماله الى جبن أو فتور ٠

وقد اشتهرت (النكتة المصرية) بين جيران مصر وعرف المصريون (بالتنكيت) فى الزمن القديم ، كما عرفوا به فى الزمن الحديث ، حتى قيل : ان الرومان حرموا عليهم المحاماة فى محاكم الاسكندرية ، لأنهم كانوا يغضون من هيبة القضاء الرومانى بالمزاح والدعابة ، وفى أثناء الدفاع وشرح القضايا ٠

وليست اللباقة وبراعة الحديث ولطف النادرة وحسن المؤانسة بالخصال المستغربة فى أمة قديمة الحضارة عريقة الآداب ، منصرفة فى أكثر الأحيان الى السلم والمعيشة الوادعة ، وأخلق بهذه الخصال وحدها أن تكون ينبوعا فياضا للنكتة ولباقة التعبير فى الجد والهزل على السواء ، فاذا أضيفت اليها عبر الأيام ونقائض التاريخ وأطوار الحوادث المتعاقبة ففى ذلك مدد للفكاهة لا ينضب ، واغراء بالترويح عن النفس لايزال يهديها الى التبسط والمزاح ٠

لذلك كان المصرى مزاحا بحكم لباقته المستفادة من قدم الحضارة ، ومزاحا بحكم الحوادث التى تلجئه الى التخفيف وقلة الاكتراث ، ومزاحه فى جميع الأحوال متسم بالصبغة المصرية ، مطبوع بطابع أقليمه وتاريخه ، بحيث ينم على خصائصه الفكرية والنفسية ،

ويميزه نمطا وحده قليل النظائر بين أنماط الفكاهة والتنكيت ، والنكته كما يعلم القراء اما نكته دعابة أو نكتـه تهكم ، وفى كلتـا الحالتين تتميز للمصرى دعابه تشبهه ، وتهكم يناسب طبيعته وتاريخ بلاده .

فأما الدعابة فهى تقوم فى الغالب على ادراك النقائض وملاحظة المفارقات · ويختلف فيها الناس باختلافهم فى التفكير والشعور والنظرة الى الحياة · فالعمليون الحسيون يدركون النقائض بين الأشكال والصور ويوجهون التفاتهم الى المشابهات اللفظية والتجنيسات المعنوية ، التى لا تمعن فى التعمق ولا فى التفتيش الخفى عن الأسرار · والخياليون المتعمقون على خلاف ذلك ينصرفون عن الأشكال والصور الى ما وراءها من نقائض الأسرار ودخائل الاحساس وبواعثه الخفية ، فيقل فى نكاتهم جناس اللفظ والالتفات الى المحسوسات ، ويكثر فيه جناس البداهة البعيدة ، والالتفات الى الأسرار العويصة · ومن البديهى أن النكتة المصرية لن تكون فى جملتها الا نكتة محسوسات لا تتمادى فى الخيال ولا تتعلق بالغوامض ، لأن أصحابها قوم عمليون حسيون يقيسون الأمور بمقياس الوقائع والتجارب العيانية ·

أما التهكم فانت خليق أن تعرف أخلاق الأمة بحذافيرها من عرفانك بأسلوبها فى تهكمها وسخريتها · فانك اذا عرفت ما تسخر به الأمة عرفت ما تجله وتحوطه بالهيبة والكرامة · وتهكم المصريين كله مصبوب على الجلافة والغفلة ، فمثال الرجل الكامل عندهم هو اللبق اليقظ الذى يتجنب الخشونة ويفطن للخداع والمراوغة فلا تجوز عليه حيلة · وأى شىء هو أدنى الى الطبيعة المصرية وأشبه بالتاريخ المصرى من التهكم على هذا الأسلوب !

فالجلافة فى القول أو فى التصرف هى أول شىء يضحك منه أبناء أمة قديمة الحضارة مصقولة الحاشية ، تأنقت فى الكلام حتى

جعلته فنا كثير اللحون والاشارات ، وتأنقت في الكياسة وآداب المعاملة والمعاشرة حتى جعلتها فنا كثير المراسم والاصول ، لا يتقنه الا من نشئوا عليه بالتربية والمرانة ·

اما الغفلة فالمصرى يزدريها ويزدرى من يقع فيها ، لان الحوادث والمظالم أحوجته الى الحيلة وحسن التخلص ، واضطرته الى التصرف بين الناس على حذر وكياسة توافق مصلحته وتليق بأدبه ، وجاءه المرتزقة من أبناء الأمم المشتغلة بالتجارة وترويج السلع الغريبة فأحوجوه مرة أخرى الى الحيطة واليقظة واجتناب الغفلة ، لأنهم كانوا جميعا قناصي كسب لا يتورعون عن خطفه واختلاسه بكل وسيلة ميسورة ولا يزالون محميين مرعيين ، وهو بينهم فريسه مباحة الذمار ، لا تأوى الى حماية ولا تعدل عن رعاية ·

وقد زار مصر رجل انجليزى هو صاحب كتاب (الأديرة والمعابد) فى شرق بحر الروم قبل قرن على التقريب ، فوصف أخلاق بعض الباعة المخادعين الذين ابتلى بهم المصريون فى ذلك الحين ، فقال : « انهم على الجملة أنذال يتفاخرون بالختل والاحتيال ، وأن هناك بيانا صحيحا لنصيب كل طائفة من القدرة على الغش والسرقة يدل عليه هذا التقدير ، فلابد من أربعة أتراك لخداع افرنجى واحد ، ولابد من افرنجيين متعاونين لخداع اغريقى واحد ، ولابد من اغريقيين مشتركين لخداع يهودى واحد ، ولابد من ستة يهود معا لخداع أرمنى واحد » ·

وهؤلاء كلهم كانوا فى العصور الوسطى وما بعدها مسلطين على المصرى الأعزل ، يزيفون له البضائع الغريبة ويخدعونه عن قيمتها وعن درجتها وعن ثمنها وعن حاجته اليهـــا ، بعد أن قضى العصور وراء العصور محتاجا الى الحيلة والكياسة لاتقاء ظلم الظالمين وغصب الغاصبين ودسيسة الدساسين · فليس بعجيب بعد ذلك

كله أن يزدرى الغفلة وأن يجعلها هدفا لتهكمه وغرضا (لقوافيه) وقفشـــاته ٠

ولقد يكون ولعـــه بالكناية ــ بل افراطه فى حب التورية والجناسات اللفظية ــ ناجما من هذه الحاجة الى الكياسة فى التعبير واللباقة فى ابلاغ الاشـــارات والتلميحات الى المعنيين بهـــا من الســـامعين ٠

ولم يظهر اليقظة والزراية بالغفلة فى النكتة المصرية وحدها ، بل ظهر فى جميع الآثار الفنية التى تعبر عن معاملات الشـــعب ومعايشاته ، فامتلأت القصص والنوادر بكلمة (الملاعيب والمغارز ، وازدحمت بأفانين الشـــطار والعجائز الماكرات فى نصب الفخاخ والأشراك ، كمـــا ازدحمت بأفانين الأذكياء والظرفاء فى اجتنـــاب ما ينصبنه من فخاخهن وأشراكهن ٠ فكان مدار القصة والنكتة معا على الغفلة واليقظة أو على الجلافة واللباقة ، وكان فى هذه وتلك مجال واسع للانتقام من الحكام الذين يصولون بالسلاح والبأس ، وهم فيما وراء ذلك أجلاف مغفلون ٠

ويخيل الى العقاد أن النكتة المصرية والنسك المصرى أخوان تؤأمان أو صنوان يتجاوران ، فالنفس المصرية التى أرهفتها الحضارة ودمثتها المؤانسة ، وصقلتها المعيشة المنتظمة لن تستغنى عن ملاذ تسكن اليه كلما اشتد عليها الجور وضاقت بها مفاسد الحياة العامة ، فاذا غلبت على المصرى محبة المتعة والنعمة الرخيـــة فملاذة النكتـــة والفكاهة ، يروح بها عن نفسه ويفرغ فيها جعبة ضميره ٠

واذا غلبت عليه الصرامة وقلة الصبر على الفساد جنح الى النسك والزهادة وعمد الى الرهبانية أو (الدروشة) كما فعل مرات كثيرات فى عهود الديانتين المسيحية والاسلامية ، أما اذا سنحت فرصة التمرد والانتقاض فالثورة ملاذ لا يأباه صـــــاحب المتعة ولا صاحب الصرامة ٠

وقد رجحنا ان النسك المصرى والمزاح المصرى أخوان توأمان ، لأنهما يدوران معا على الاستخفاف بسوء الحال واليأس من صلاح الأمور ، وانما يستخف أحدهما بحاله فيهجره ويعزف عنه ،ويستخف به الآخر فيأخذه على هينة ويسخر به لكيلا يجهد نفسه بهجره وكفاحه ، فليس المصرى بناسك على طراز النسك اليابس العقيم الذى يجهل الحياة ويقابلها بالنفى والانكار ، ولكنه ناسك حين يكون النسك (عملا ايجابيا) يقوم الشر ويود صاحبه لو يقرر الخير فى هذه الحياة ، وليس بالمستطيع .

وأشبه بهذا ـ يقول العقاد ـ أن يضاف اليه ما كتبناه فى مقال (معبد ايزيس) عن الطبيعة المصرية حيث قلنا منذ بضع عشرة سنة : وكلما اقترب الموكب الضاحك من جيرة المعابد بدا لنا منظر عجب : ها هنا شرأب يطير حول السرور طيران الفراش حول النور ، ها هنا معابد تسكن فيها حركات النفس وتركد فيها نسمات الحياة . وهذه المعابد نقيض ذلك الشعب وعلى خلاف سمته وسنته ومن واد غير واديه الذى يهيم فيه ، فكيف مع هذا كانت معابده التى يذكر فيها ربه ويعكس عليها ظل العالم فى نظرة ؟ ويشكو لديها ما يلقاه من أمور دنياه وحظوظ حياته ؟؟ أليس هذا من التناقض الحقيق بالعجب ؟؟ أليس هذا الشعب المستبشر قد كان أولى بغير هذه المعابد الكاسفة الواجمة ؟؟

أما التناقض فلا شك أنه ملحوظ لكل ناظر ولكن فى ظاهر الأمر لا فى باطنه ، فالحقيقة التى يهتدى اليها المتأمل أن هذه المعابد خلقت لهذا الشعب ، وأن هذه الجهامة لازمة لتلك الطلاقة ، وأن الشعب الذى يملك حسه السرور ويسهل استخفافه للطرب وانتقاله الى المجانة ليس يصلح له معبد فيه أثر من الطرب والبهجة ، وليس ينقله من عالم اللهو الى العالم الالهى منظر عليه مسحة من الطلاوة والبشاشة .

فلابد له اذن من جهامة تخيم حوله على كل شيء حتى يثوب الى مقام الخشوع والضراعه ، ولابد أن ينسى كل ما يذكره بالهزل والخفة ساعة يغشى محراب العبادة ، كالطفل اللعوب لا تعلمه أن يهابك ويتحامى التاديب منك باللعب معه والتطلق فى كلامك له ، وانما يتعلم ذلك بالاحتجاز والجد أو بالقطوب والجفوة ·

من مثل هذا جاءت الصرامة البادية على معابد المصريين . وتطرقت الشدة الى شعائرهم الدينية ، وبلغ من حاجتهم أو من رغبتهم فيما يذكر بالحزن ســاعة الصفو والرغد انهم كانوا اذا اجتمعوا فى ولائمهم وظهر السرور على وجوههم ، وأخذوا فى الرقص والمعاقرة وامعنوا فى القصف والمسامرة ، خرج عليهم العبيد بجثة محنطة فى ناووسها ، فمروا بها بين الموائد وعرضوها على الضيوف والندماء لينظروا اليها ويعتبروا بها ، ويذكروا مصير ماهم فيه من نعيم زائل ولذة عاجلة ·

ولا يفوتنا أن نقول ان المصرى اذا سر فانما يملك السرور حسه ولا يغمر نفسه ، فهو لا يألف السرور الصامت القرير ولا يعرف الا التهليل والابتهاج أو السكون والخواء · لا تسر نفسه وجسمه ساكن ، ولا يسكن جسمه وأمامه محرك للسرور أو مذكر به · وكيف يطيق من كان هذا طبعة أن يجمع بين التعبد وشيء من بوادر الصفو وبشائر الحياة فى أماكن عبادته ومناسك دينه ؟ ثم انك ان أردت أن ترد المصرى الى طبعه وترى حقيقة المناسبة بينه وبين معابده فانظر اليه حين يفرغ من سروره الذى يستحوذ على حواسه ، ويستخف أعضاء جسمه ، فالك تراه واجما مقفر النفس ، بادى الظلمة ، هامد العاطفة ، ويذكرك أول شيء بالمعبد المصرى القديم الذى نستغربه ونعجب أن يكون محل صلاته وباب دنياه الآخرة · فاذا هو فيما يغيم على ظاهره من الكآبة والخــوف ، ويرين على باطنــه من الظـلام والتســـليم ·

ولنعلم أن المعبد المصرى فى العصور الأولى هو قرين المقبرة وصنو الموت ودهليز العالم الأخير ، ثم لنعلم بعد أن الموت عند قدماء المصريين هجعة الحس الى حين وراحة الجسم الى أجل ، ثم تعود الروح الى هذا الجسد الأول كما كانت قبل بعثها من عالم الأموات ·

ومرادنا بذلك أن نقول : ان الجسد جزء من الانسان لم يكن يستغنى عنه فى هذه الحياة ولا فيما بعدها ، ولا يجوز أن يهمل فى حالة من الحالات أبدا · فما كانت تعرف للنفس حياة بغير هذا الجسد ، ولا كان يفهم لها سكون أو حركة بغير سكون الجسد أو حركته ، فاذا أرادو أن يحملوا النفس على الخشـــوع والتطامن فسبيلهم أن يتقدموا الى ذلك باستئسار الحس واحاطة الأعضاء بما يكف من نشاطها ، ويغل من حراكها ، وينسيها أبرأ مرخصات الحياة وأبعد موحيات الطرب ، وأن يدخلوا العابد المصلى فى برزخ بين الحياة والموت وجسر بين الدار والقبر ·· وماذاك الا الهيكل القديم كما بناه المصريون لأنفســـهم ، أو كما بنته الطبيعة التى لا تخطىء لها هندسة ، ولو بنت بأيدى الخاطئين ·

تلك خطوط عاجلة لخصائص (النفس المصرية) كما ترى بعين الواقع لا كما ترى بعين الغرض والخرافة ، وهى خصائص انسانية تقترن بالقوة فتعد من أقوم وأفضل ما عرف عن أخلاق الشعوب ، وتقترن بالضعف فتســـوء وتفسد · ولكن نظيرها فى مساوى الضعف بين شعوب العالم ليس بقليل ·

أم الدنيـــا

المعروف عن المصريين أنهم من أكثر الشعوب حبا لوطنهم ، وقيل فى تبرير ذلك ان مهنة الزراعة هى التى نسجت تلك العاطفة الودودة بين الانسان والأرض ، فمصر واحة خضراء تحيط بها الصحراء الصماء ـ كالشرنقة ـ الأمر الذى لم يشجع المصريين على الهجرة خارج وطنهم ، وأيا ما كان التفسير فان حب المصريين لوطنهم حقيقة أزلية دفعتهم منذ عصور سحيقة الى بناء صرح الحضارة ، فأقاموا المشروعات الهندسية لتنظيم الرى والصرف ، ومنها انتقلوا الى بناء المعابد والمقابرالهائلة التى عرفت باسم الأهرامات ، وامتدت عملية الابداع الى مجالات العلوم والفنون والآداب التى جعلت من مصر مهدا للمدنية والتحضر ، وصـــدق عليهـــا وصف ابن خلدون بأنها « مجمع الدنيا ومحشر الأمم » ، واذا نقبت فى أى علم أو فرع من فروع المعرفة فسوف تجد بداياته الأولى هنا ·· فى مصر ·

ولم تبلغ مصر هذا الشـــأن العظيم الا بفضـــل روح الحب والتعاون والاخاء التى سادت المصريين منذ كانوا يعيشون فى كهوف طينية بدائية على ضفاف النيل ، وبلغت هذه الروح النبيلة عندهم مبلغ العقيدة · فكانت البذرة التى انبثقت منها فكرة الدين ، ولو ألقيت نظرة عميقة على بناء هندسى كالهرم الأكبر أو معبد رمسيس فى أبو سمبل أو معبد الدير البحرى ، لأدركت أن هذه الأعمال الجبارة لم تكن لتقوم على هذه الصورة الرائعة الا اذا كانت وراءها عقيدة وايمان وتعاون وحب ، وقد استكثر علينا البعض ان تكون لدى أجدادنا الأقدمين هذه الروح المحبة للخير والفضيلة ، فزعموا ان الأهرامات اقيمت بالسخرة والقهر ، وان الكرباج هو الذى ساق المصريين الى البناء والتشييد ، وهؤلاء معذورون فى زعمهم ، لأنهم

لم يتذوقوا عمق الاحساس بالقيم التى تدفع صاحبها الى التفانى فى حب الوطن ، والتضحية بالجهد والعرق من أجل العقيدة ، وقد كان أجدادنا يعتقدون أن ملوكهم آلهة ، أو من أصـــلاب آلهة ، وأنهم سيخلدون فى العالم الآخر ، ومن ثم يستحقون أن يعيشوا فى عالم الخلود فى نفس المستوى الذى كانوا عليه فى عالم الفناء ، ومن أجل هذا الاعتقاد تنافسوا على البناء لاظهار محبتهم للمعبود ٠

حب الوطن كان الدافع الأكبر للمصريين كى يفعلوا المعجزات ، ويقيموا هذه الصروح التى لاتزال تبهر الأمم والشعوب ، كانت مصر فى تلك العصور اشبه بخلية نحل يتعاون فيها الجميع على جمع الرحيق ، وتجميل الواحة الخضراء التى افاءت عليهم الخير والرفاهية ورغد العيش ، فقابلوا الاحســان بالاحســان ، ومنحوها الحب والتعاون والحماية ٠٠ وهو أقصى ما يملكه الانسان لوطنه ، وغاية ما ينشده الوطن من أبنائه ٠

أغراب فى بلـدنا :

فى لحظات العسر والشدة ، تضيق صدور المصريين ، فتصدر عنهم عبارات يخيل الى سامعها ان عاطفة حب الوطن قد اهتزت أو تلاشت ٠٠ تسمع من يقول : نحن أغراب فى بلدنا ٠٠ ومنهم من يقول : هذه ليست بلدنا ٠٠ انها ملك غيرنا «!!» ومثل هذه العبارات الانفعالية تعبر عن أزمة نفسية تجتاح المصرى فى لحظة زمنية معينة ، وتعود الى أسباب كثيرة : منها ضيق الرقعة الزراعية بالنســـبة للانفجار السكانى ، ومنها الفساد السياسى الذى لا يقيم موازين العدل والمساواة ، ومنها الخلل فى أنماط المعيشة بين فقر مدقع ٠٠ وثراء فاحش مجهول المنبع ، ومنها ازدياد تيار الهجرة بحثا عن حياة أفضل والاحتكاك بمستويات اجتماعية عالية الدخل ، كل هذه العوارض الجديدة وضعت المصريين فى حالة من القلق والسخط وعدم الرضا بالواقع ، فتصدر عنهم عبارات تنم عن الغليان ، ولكن

هل يجوز ترجمة هذا الغضب بأنه انفصام العلاقة العاطفية بين المصريين وبين وطنهم وهل يجوز تفسيره بأنه رغبة فى الهـــدم والتـــدمير ؟

لقد مرت بمصر ـ عبر مراحل تاريخها الطويل ـ أزمات وشدائد ومجاعات وأوبئة وحروب أفظع مما نتخيل ، وكتب التاريخ القديم الوسيط والحديث طافحه بهذه الكوارث ، ما ان تقراها حتى يقف شعر رأسك ، ويخيل اليك أن المصريين أوشكوا على الانقراض ٠٠ ولا تلبث أن تســـأل : كيف استطاع المصريون اجتياز هذه النكبات ، وكيف خرجوا من المحن ـ كما تخرج اليرقه من الشرنقة ـ لتستأنف رحلة البقاء ، وتعيد صيرورة الحياة ، وتواصل العمل والبناء والتعمير «!!» ٠

نحن نغضب ونثور على الأوضاع الظالمة ، ولكننا لا نفقد أبدا حبنا لهذا الوطن العظيم ، ولا نشمت فيه اذا انتكس ، ولا تمتد أيدينا اليه بسوء برغم ما يقع علينا من أذى من جانب الظالمين والعتاة والجباه ، لأننا نؤمن بأنه وطننا ، أما هم فانهم زائلون ٠٠ سيذهبون كما ذهب أسلافهم ويبقى المصريون ثابتين فى أرضهم كاشجار الجميز ، لا تقوى الرياح على اقتلاعه ٠

الأم الرؤوم :

الأم تغضب على ابنها ، والأخ قد يخاصم أخاه ، والابن ينفعل على أبيه اذا لم يلب احتياجاته ٠٠ ولكن سرعان ما يزول الغضب ، ويثوب الجميع الى رشدهم وتتغلب عاطفة الحب والحنان على انفعالات اللحظة الطارئة ، ولا تنفصم العلاقات بين المصريين وأمهم الرؤوم : مصر ٠

يهاجر المصرى الى المجتمعات الثرية ، ويغادر وطنه مغاضبا ، ولكن ما ان يحط رحاله فى الغربة حتى يتذكر مصر ، وتتوهج فى

قلبة جذوة الحنين الى الوطن ، وتتحول مصر في وجدانه الى هم يصل به الى حد الأرق الذى يحرمه لذة المتنعم بما يتمرغ فيه من رغد ورفاهية ، يقرأ في الصحف عن حوادث تقع فى مصر ، فيبتئس ويحزن ويتوجع ·· ويخيل اليه ان القيامة قامت ، ويتمنى لو يمتطى أول طائرة تعود به الى مصر ليطمئن عليها ، ويسارع الى وأقرب هاتف ليبدله فزعه وأساه ·· يعيش المصرى فى الغربة وقلبه معلق بمصر ·· يشترى أفخر الثياب ، فيضن على نفسه بارتدائها ، ويكدسها فى الحقائب الى ان يعود الى مسقط رأسه ، لأن بلده أحق بأن تراه مختالا فى ثياب غالية ، ويفكر فى الزواج فلا يقترن الا بواحدة من بنات جنسه كى تنجب له أطفالا يواصلون رسالته فى الكون ، فاذا بلغوا سن المراهقة ضحى بالنعيم ، ولملم عزاله وعاد الى مصر ليتكلم أولاده العربية ، ويؤدوا الصلاة ، وينشأوا على حب الوطن ·

·· مصر فى قلوب أبنائها هى المناط والامل والمستقبل ، مهما قست عليهم فى أرزاقهم أو أسرفوا عليها فى لحظات العسر ، ولكى تعرف سر تلك العلاقة الحميمة بين مصر وأبنائها رأيت أن أقدم لك هذا المقال وعنوانه « مصر أم الدنيا » للمؤرخ الجليل الدكتور حسين مؤنس الذى ذاب هياما فى حب مصر ، فدرس تاريخها ، وفهم سرها ثم باح به فى كتابه البديع « مصر ورسالتها » لعلك تجد فى هذا الفصل ما يدفعك الى المزيد من العطاء والحب لهذا الوطن العظيم ·

مصر أم الدنيا :

فى البدء كانت مصر ·· قبل الزمان ولدت ، وقبل التاريخ ، هنا بدأ كل شيء : الزراعة ، العمارة ، والكتابة ، والورق ، والهندسة ، والقانون والنظام ، والحكومة ··

وهنا ، وقبل كل شيء ولد الضمير ، هكذا قال جيمس هنرى بريستيد فى كتاب جليل عن مصر عنوانه : فجر الضمير

The Down of History . والضمير هو ذلك الوازع الداخلى فى كيان الانسان الذى ينبهه الى الخير ويحذره من الخطأ ويحاسبه على ما يتعارف من أخطاء حسابا داخليا صامتا ولكنه ألم للانسان من كل عقاب • وعلى أساس الضمير ظهرت الديانة المصرية القديمة •• وكان المصرى القديم أول من تنبه بالفطرة الى حقيقة البعث والحساب •

من حيوان يجرى في الاحراش لينجو من خطر ، أو ليفترس ، أو ليأكل ، أو ليبحث عن انثى •• تحول الى انسان يفكر ، ويتأمل ، ويرسم ، ويكتب ، ويحاسب نفسه •

مع حساب النفس نشأت الآلهة لتقوم بالحساب وتنصب الميزان •• خارج دنيا الأرض نشأت دنيا السماء ، وقام الدين والأخلاق ، والخير والشر •

الملائكة والشياطين ولدوا جميعا هنا ، ومن عندنا خرجوا الى الدنيا •

وفى قلب المصرى القديم ، وفى بيته وفى مدينته وحقله ، فى أرضه وسمائه وجدت « معات » ، رمز الضمير والاحساس الانسانى والقانون الأخلاقى « معات » هى ما نسميه اليوم بالمروءة ، المروءة بمعنى الانسانية والحب والخير والعدالة والفضيلة • هذه كلها اكتشفها المصرى القديم ، وهو يعمل فى حقله وينظر الى السماء الزرقاء ، ويستعطف الشمس الحامية ، ويعانق النبات الأخضر الطالع •

عندما اكتشفها المصرى القديم وصل الى أعظم كشف فى تاريخ الفكر البشرى ، اكتشف انه انسان ، وان هناك فرقا بينه وبين الحيوان : لا تنازع على البقاء وانما تعاون للبقاء ، لا قتل ولا ظلم ولا عدوان ، بل حب وتعاون واخاء •• هذا سر من الأسرار الكبرى لحضارة مصر القديمة التى حيرت البشر •

قرون تجرى فى اثر قرون ، عوالم تولد ثم تموت ، ومصر هنا فى مكانها ، تبنى وتنشىء وتعمر وتكتب وترسم وتنشد وتصلى ، وتتألق وتتوهج ، وتخبو ، ثم تتألق وتتوهج ٠

حكاية جميلة من ألف فصل مضت ، ألف فصل تأتى باذن الله ٠

هنا بدأ كل شىء ، وهنا عاش كل البشر ٠ هنا عاش رسل وأنبياء وحواريون ٠ لم يذكر الله سبحانه فى كتابه العزيز بلدا باسمه الا مصر ٠٠ هنا خرج الانسان وبدأ رحلته عبر القرون نحو الخير والسعادة ٠٠ من هنا بدأ العلم والفن والفكر ، ومن هنا يمكنك أن تقول : صعد الانسان الى القمر وسار عليه بقدميه ٠

وكما كانت مصر فى كل زمان ، فهى أيضا كائنة فى كل مكان ٠ فى فرنسا يقولون ان مصر تبدأ من ميدان الكونكورد ، حيث مسلتنا العظمى على مسافة قريبة من ميدان « الوفاق » ٠ هنا يقوم متحف اللوفر ، والقسم المصرى فيه جزء من تاريخنا وتاريخ فرنسا معا اشترك فى كتابته فرنسيون ومصريون ، أو متمصرون اذا شئت ٠

كان جان فرانسوا شامبوليون يقول : أنا شامبوليون المصرى عندما عاد من مصر وزار قريته المسماة « فيدجاك » قال هذا « كفر » فيدجاك ٠٠ جاء الى بلادنا غلاما فى الثامنة عشرة من عمره يلتمس المجد : وخرج منها وفى احدى يديه مفتاح الهيروغليفية ، وفى الأخرى مفتاح الحياة ، وأصبح ـ وهو فى الثلاثين من عمره ـ استاذا فى الكوليج د٠ فرانس ٠

بهذين المفتاحين أضاف الى تاريخ البشر خمسة آلاف سنة ، وعثر على مفاتيح أخرى لألوف السنين ٠٠ هذا العبقرى الذى فتح ذلك الفتح العظيم ومات فى الثانية والأربعين من عمره ، كان محموما

بمصر . عندما وصل الى آبى سمبل وجد المعبد مطمورا فى الرمال الى أوساط التماثيل ، تسلق ونفذ الى داخل المعبد غير عابىء بالحيات التى كان الناس يرونها رأى العين . لم تجرؤ الحيات على أن تمسه ، كان ايمانه كعصا موسى : يبطل معها كل سحر .

بعد شامبليون ، عشرات من العباقرة مدوا حدود مصر الى عواصم أوروبا ، حتى وصلت أدنبرة ليننجراد وبرلين .

حدود مصر في الغرب كانت حينا في برقة ، وحينا عند الاسكندرية ، ولكن كشوف الأثريين خلال السنوات الأخيرة مدت حدود مصر الى قلب الجزائر . هناك وعلى صخور الصحراء حتى منطقة الهقار ـ التي تسمى « آهاجار » ـ اكتشفوا طلائع الفن المصرى القديم .. هناك عاش أحد العناصر البشرية التى كونت شعب مصر ، أولئك الذين كان المصريون القدماء يسمونهم « التمحنو » ويسميهم العلماء « أهل الريش » ـ أبو الريش اذا شئت .. من هنا أتوا يحملون ريشهم وفنهم ويسوقون قطعانهم ، ليستقروا آخر الأمر على ضفاف الوادى ويصبحوا مصريين ، اقرأ عنهم عند سليمان حزين وجمال حمدان وأحمد فخرى ، وعبد المنعم أبى بكر وابراهيم رزقانة ، وغيرهم كثيرون .

ومع كل فلدينا حدود غربية لحضارة مصر هى أبعد من هذا ، هناك على ساحل الأطلسى فى جمهورية موريتانيا الحالية يوجد اقليم شنقيط . شنقيط هذه كأنها جزء بعيد من مصر . على طول العصور الوسطى كان الشناقطة يأتون من هناك ليتعلموا ويعودوا ، الكثيرون منهم أقاموا عندنا ، ورواق الشناقطة في الأزهر مشهور .

وفي الأندلس ـ أسبانيا والبرتغال اليوم ـ كانت باجة « فى البرتغال » تسمى مصر ، ومرسية « فى أسبانيا » كانت أيضا تسمى مصر ، لأن العرب الذين سكنوهما كانوا مصريين .

وفي الجنوب ، أين تبدأ مصر ـ حضـــاريا أقصد ؟ لقد قال هارولد ماكمايكل الديلوماسي البحاثه البريطاني : « في رحلتي الأولى مع النيل جنوبا ، ما وجدت بناء حجريا ـ من الخرطوم الى اكواتوريا « المديرية الاستوائية » ـ الا وهو من بناء المصريين • كل المدارس والمساجد ونقط البوليس وثكنات الجند ومراكز المواصلات ومحطات الري ، بناها المصريون » •

مصر هذه كبيرة صغيرة •• الذي تراه منها على ضفاف النيل هو عاصمتها •• عاصمة تبدأ عند الاسكندرية وتنتهي عند الشلال •• وبقية الدنيا هي البلد !

المصريون يقولون : مصر أم الدنيا ، حقيقة كبرى يقولونها دون ان يدركوا مغزاها نعم أم الدنيا ، بل هي الدنيا •• ولو عرف كل مصري قدر مصر لما كفاه أن يعمل لها بيديه وأسنانه وعقله عشرين ساعة في اليوم •• بهذا فقط يكون المصري جديرا بمصر •

مصر الخضراء :

مصر ، ما هي !

أحيانا ـ وأنا أعيش فيها ، وأفكر ـ أحس أنها عود قطن أو ورقة في شجرة جميز •• شيء أخضر على أي حال •• أحيـــانا أخرى ـ وأنا بعيد عنها ـ أحس ـ أنها كل الدنيا ••.

عندما خرج أفلاطون من مصر ووصـــل الى كريت رآه النـــاس يتحسس رأسه ، فسألوه فقال : أريد أن أتأكد أن دماغي مازال في مكانه •• كاد يضيع مني هناك ••

هذا بلد تجار يشترون منك أي شيء !

وعندما وصل الاسكندر الى الدلتا قال : أي جنة هذه !

وعندما وضع نابليون قدمه على شاطىء مصر قال : أي نار هـذه ! .

وعندما وصل اليها عمرو بن العـاص قال : هذه شـجرة خضراء ..

وعندما جاء ابن خلدون الى القاهرة قال : رأيت مجمع الدنيا ومحشر الأمم ..

ويوليوس قيصر ـ عندما أجهده المصريون في حربهم وحاصروه في الاســكندرية ـ قال : لن أبقى فى هذا الجحيم لحظة أكثر مما ينبغي ..

أما صلاح الدين فقد قال شيئا معناه : هذا بلد لا يخرج منه الا مجنون ..

أقوال وآراء شتى تخرج منها بأن مصر هي كل شيء وأي شيء تريده ، بحسب مزاجك وملكاتك واتســاع قلبك وعمق شـعورك ونظرتك الى الحياة ..

كثيرون جدا من الذين زاروا مصر على طول العصور فهموها وأحبوها واستقروا فيها واندرجوا في غمار أهلها وأصبحوا شيئا من كيانها .. ولكن أبا نواس – على عبقريته ـ لم ير في مصر الا النيل ولم ير فى النيل الا التماسيح .. والمتنبى – وهو شاعر أضخم من أبى نواس ـ لم ير في مصر شيا أصلا ! لأن المتنبى كان يسير في الدنيا وعيناه تنظران في داخل نفسه .. هذه الدنيا لم ير منها شيئا ، ولكنه رأى المتنبى جيدا .

ومصر عاشت تاريخها كله على القلائل الذين فهموها جيـدا أحبوها في عمق ، سواء أكانوا عباقرة أم ناسا بسطاء . لقد قال نابليون : لو أتيح لى أن أعيش في هذا البلد وأحكمه ، لما تركت

قطرة من ماء النيل نذهب الى البحر ·· حقا ان العقول الكبيرة تتلاقى ، وكذلك القلوب ذات العمق · في الفرنسية يقولون · الأرواح الطيبة تتلاقى · ومصر هذه انما هي ثمرة جهد عقول كبيرة وقلوب ذات عمق وأرواح طيبة تتلاقى وتعمل معا ، وربما دون قصد ··

في أيام الخليفة الحاكم — وكان دون شك رجلا غير سقيم العقل — أتى من العراق عبقري رياضي هو الحسن بن الهيثم ، وفي حقيبته مشروع لتنظيم مياه النيل : أين الحسن بن الهيثم وأين مياه النيل ؟ ولكنه كان عقلا كبيرا ، والنيل قلب كبير · لم ينجح الحسن بن الهيثم فيما أراد ، وادخلوه السجن · كان سجنه غرفة مظلومة ، في بابها ثقب صغير · في ظلام المحبس رأى صورة الخارج تمر من الثقب ، وتنعكس على الجدار · هذه هي « الغرفة المظلمة » ·· الكاميرا أو بسكيورا ، هذه هي الكاميرا أو الفوتوغرافية ·· اكتشفها عقل كبير في سجن على ضفاف النيل ·· بعد أن خرج من السجن لقي على بن يونس · كان أيضا عقلا كبيرا ، ولكنه كان مجنونا ولا شك ··

كان يرصد النجوم على قمة المقطم ، وكان يعشق كوكب الزهرة « فينوس » · كان يلبس رداء طويلا أحمر ، ويضع على رأسه طرطورا طويلا أحمر ، لكي يستلفت نظر محبوبته السماوية ، ولكنه كان فلكيا عظيما ، كان مجنونا وعقلا كبيرا في آن واحد ·· واحدا من العقول الكبيرة التي صنعت تاريخ مصر ·

عقـــول كبيرة :

في تاريخ مصر عقول كبيرة كثيرة ، ولكن الكثير منها لم يكن كبيرا قبل أن يدخل مصر · مصر هي التي أعطتها حجمها ·

الاسكندر دخل مصر قائدا صغيرا ، وخرج منها الها معبودا ·· وعمرو بن العاص دخل مصر قائدا عاديا ، وخرج منها من بناة الدول

.. وصلاح الدين ، ماذا كان قبل ان يدخل مصر ؟ قلها ولا تخف .. مجرد ضابط صغير .. مصر جعلت منه صانعا من صناع التاريخ .. ونابليون دخلها مغامرا ، وخرج منها وقدمه على عتبة سيادة الدنيا .

مصر صنعت لهم جميعا أكثر مما صنعوا لها ..

هؤلاء الذين أتوا من الخارج لم يصنعوا تاريخ مصر كما يقال ، بل مصر صنعت تاريخها وصنعتهم هم أيضا .. كانوا يقولون ان مصر هبة النيل ، ولكن شفيق غربال صحح العبارة وقال : ان مصر هبة أبناء مصر ..

ماذا صنع أحمد بن طولون - مثلا - مصر ؟

ماذا كان يستطيع محمد بن طغج الأخشيد أن يصنع لها ؟

وبيبرس ، وقلاوون ، وبقية السلسلة ؟ صنعتهم مصر فيما صنعت . ان تاريخنا لم يكتب بعد ، عندما يكتب ستتلاشى أسماء كثيرة ، ستسقط كما تسقط أوراق شجرة عجوز بعد عاصفة خريف .. انما العقول الكبيرة التى صنعت تاريخ مصر هى عقول أبنائها الذين نشأوا من ترابها ، أولئك الذين يخرجون من بطون الريف وفى قلوبهم فحولة الفراعنة وحزم شيخ البلد ، ورقة نفرتيتى . أولئك الذين يصنعون تاريخ مصر على مهل وفى صمت .

والاغريق - الذين يزعم المؤرخون أنهم من كبريات الشعوب التى صنعت التاريخ ، والذين يفخر الاوروبيون بأنهم آباؤهم الروحيون - هؤلاء الاغريق أنفسهم كانوا يعترفون بأنهم تعلموا أصول الحضارة من مصر .

هنا تعلموا الفن والفكر والجمال والدولة والنظام .. بعضهم اعترف بفضل مصر وبعضهم أبغضها بغض الانسان لما هو أحسن

منه . وهيرودوت يمدح مصر أحيانا ، ويهجوها أحيانا أخرى ، وهجوه أياها أدل على اعترافه بفضلها من ما

حب الوطن :

القلوب الطيبة التى تضفى طابع الانسانية الغالب على تاريخ بلادنا كثيرة ، أقدمها من الناحية التاريخية ذلك الموظف المصرى الكبير الذى عاش سنوات الفوضى والقلاقل التى اعقبت الأسرة السادسة قبل الميلاد بخمسة وعشرين قرنا . فى صفحات بردى حافلة بالعمق الانسانى ، بكى هذا الرجل الطيب مصير بلاده التى إفترستها الفوضى ، هذا الرجل الطيب رثى بلاده رثاء يدل على احساس قوى عظيم .

هذه أول وثيقة فى التاريخ نشعر فيها بما يسمى « حب الوطن » قبل ذلك بقليل نقرأ اسم أول « رئيس وزراء » فى التاريخ، هو « أونى » وزير الملك « بيبى » .. كان رجل دولة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، كان « وزير خارجية » أيضا يعقد الاتفاقات والمعاهدات .

فى نفس الوقت نسمع عن أقدم قصة وفاء زوجى فى التاريخ ، هى قصة الملكة « نبت اكيرتى » التى نسميها نيتوكريس .. معنى اسمها « الجميلة ذات الخدين الورديين » .. هذه أيضا كانت أول ملكة فى التاريخ .

كما قلت لك : كل البدايات تجدها هنا .. هذه القلوب الطيبة .. كانت دائما هنا .. معظمها لناس بدون أسماء ، ناس مجهولين ، قل اذ شئت : جنود مجهولون .

فى العصور الوسطى كانت القلوب الطيبه تسكن جناحا من تل المقطم ، هو « القرافة » .. هناك كانت مدينة الصالحين وأهل

الخير ، هناك كانوا يعيشــون للعبادة ثم يموتون • لقد سماها « لوى ماسينيون » مدينة الموتى ، وكتب عنها مقالا لا ينسى • انها مدينة الموتى الأحياء •• ثم الأولياء والصالحين وأهل الخير والعفاف حقــا •

انهم يختلفون كثيرا عن الأولياء الذين يعيشون فى المدن بين الناس • هؤلاء ربما كانوا أولياء وربما لم يكونوا ، لأنهم غارقون فى دنيا الناس • الآخرون ـ حراس مصر الذين عاشوا بعيدا مع الله ـ هم أصحاب القلوب الطيبة من أولياء وقديسين • كثيرون منهم ناس بسطاء تعرفهم بسيماهم وأعمالهم • فى قريتك وقريتى ، فى شارعك وشارعى ، فى أسرتك وأسرتى ـ يوجد أولئك الناس الطيبون الذين يخدمون الآخرين ويرعون تقليد المروءة •• انهم يواصلون رسالة « معات » رمز الضمير الحى عند أجداد أجدادنا •

الناس الطيبون الذين صنعوا تاريخ مصرك هم الزراع والصناع، وكل أولئك الذين يملأون الخلية المصرية نشاطا وشهدا ، هم الذين يبنون وينشــئون وهم يســعون لرزق الأولاد ، والأولاد ذخائر الأوطــان •

هم الجنود المقاتلون الذين رابطوا على حدود مصر من فجر التاريخ •• هم الجنود المجهولون الذين أنشأوا الامبراطوريات ، وهم الذين يقفون اليوم على الحدود ليحموا أرض مصر فى كل اتجاه وأرض مصر ـ بعد ألوف السنين ـ لم تنقص شبرا منذ أيام مينا أو نارمر ، وكل شبر من أرضها أعادته اليها القلوب الطيبة الباسلة باذن الله • ونجزم ـ من شواهد التاريخ ـ بأن المصرى لن يرضى أبدا بأن يترك شبرا من أرضه تحت يد غيره •

مدرســـة الاســـكندرية :

ومصر عاشت تاريخها كذلك على العلم وأهله ، عالم مصر الأول هو أمحوتب ، هذا المهندس العظيم ـ الذى وضـع تصميم مدينة سقارة ذات الأسـوار وبناها ـ كان طبيبا أيضـا ، وقد جعله الاغريق الها ٠

من أيام أمحوتب ـ ومن قبلها قطعا ـ لم تتوقف شعلة العلم فى مصر أبدا ، لم يخل عصر من عصورنا من علماء كبار ٠ بعد علماء مصر القديمة الذين اخترعوا الهندسة والطب والطبيعة والكيمياء والقانون والأخلاق جاء علماء الاسكندرية ، اسكندرية البطالمة أقصد ، كانت جامعة كبرى ملأت الدنيا نورا ٠ لم يزدهر العلم فى مدينة قبل العصور الحديثة كما ازدهر فى الاسكندرية : فلاسفة ورياضيون ولاهوتيون وجغرافيون ومؤرخون ، علماء ملأوا طباق الأرض علما ٠ واحد منهم استنبط وزن الأرض ، وآخر قاس بعد الشمس كنيسة أياصوفيا ـ أعظم عمل معمارى مسيحى خلال العصور الأولى ـ بناها خـلال حـكم جسـتنيان « ٥٢٧ ـ ٥٦٥ م » مهندسـان من الاسـكندرية

علماء مصر الاسلامية لا يحصيهم عد ، فى يوم من الأيام جمعت الفسطاط علم الدنيا كله ٠ فى كل نواحى عالم الاسلام ركدت العقول فى أواخر العصور الوسطى ، الا فى مصر : كيف يمكن ان يكون عصر ركود ذلك العصر الذى عاش فييه أمثال السخاوى والسيوطى وابن حجر العسقلانى والمقريزى وأبو المحاسن والقلقشندى والنويرى وابن منظور والمرتضى الزبيدى وعبد الرحمن الجبرتى ؟

وفى العصر الحديث اتصلت سلسلة أهل العلم والأدب ، من رفاعة رافع الى محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ومحمود الفلكى

وحسن طفيل ومحمود سامى البارودى ، وشوقى وحافظ وطه حسين ولطفى السيد وعلى ابراهيم وعلى رامز محمد رمزى ، وعبد الرحمن الرافعى وشفيق غربال ومصطفى نظيف ، ونجيب محفوظ المثال الواضح الذى اقر العالم كله عبقريته عندما منحه جائزة نوبل فى الأدب . وبناة السد العالى وصناع مجدنا الصحفى الى أبى نظارة .. الى آخرين كثيرين جدا لا تحضرنى أسماؤهم ، فان الذاكرة خوانة والبيان طويل .. طويل جدا ..

هل أجبنا عن سؤال : مصر .. ما هى ؟

لا أعتقـــد !

على أى حال : أظن أنك ـ على الأقل ـ تحس الآن ما هى مصر .. هذا الوطن العظيم الجميل الذى نتشرف بالانتساب اليه .

والكثير الذى فاتنى يحدثك عنه علماء هم أوسع منى علما ..

هم الآخرون عقـــول كبيرة وقــلوب طيبــة ، وأهل علم من المشاركين فى بناء تلك الخلية الخالدة التى لا تسكن أبدا .. خلية مصر ، أم الدنيا ومجمع الشهد وأم الخيرات والبركات ..

رسالة مصر

لم أتصور أن يكون لقائي مع الدكتور حسين مؤنس في المقال السابق ، هو اللقاء الأخير ، عندما قدمت الفصل الأول من كتابه (مصر ورسالتها) تحت عنوان (أم الدنيا) ، فقد لبى الرجل نداء ربه بعد أن أدى رسالته تجاه وطنه وأمته ، وبعد أن أضاء حياتنا الثقافية بشموع لن تنطفيء ، وأثرى المكتبة العربية بدراسات وبحوث عميقة ، وبالنسبة الى شخصي ، فاليه يرجع بعض الفضل في تكويني الثقافي والأدبي ، والتاريخي بالذات ، مع أحمد أمين والعقاد وطه حسين وهيكل وزكي عبد القادر وعبد الله عنان وغيرهم من رواد التنوير ، وقد بدأ اتصالي الروحي بالدكتور حسين مؤنس منذ الأربعينيات عن طريق القصص التي كان يكتبها بانتظام في مجلة « المصور » ، ثم بدأت أصاحبه في مؤلفاته التاريخية التي تجمع بين البساطة والعمق ودقة التحليل ، ومع أنه كان أستاذا جامعيا الا أنه تناول التاريخ من حيث هو فن قبل أن يكون سردا لأحداث مرصوصة كالقوالب الجامدة ، وكان يملك ناصية التحليل والتمحيص ، فلا يقبل الا ما يوافق العقل ، ويرفض ما سطرته أقلام المؤرخين من مبالغات وأساطير ، وهو عندما يحدثك في التاريخ لا يتكلم بلهجة الاستعلاء الأكاديمي ، ولكن بروح الصديق الودود الذي يصحبك في سياحاته فسينطق النصوص والشخوص ويحيلها كائنات حية تبوح بأسرارها وتروى قصة الانسان في مسيرته الطويلة .

كان حسين مؤنس راهبا في محراب التاريخ ، ولكنه لم يحصر

نفسه في صومعة مغلقة على المتون والنصـــوص ، وانما عاش مع الناس في خضم حياتهم المترعة بالأفراح والأحزان ، ويدلى بدلوه في قضايا المجتمع السياسية والاقتصـــادية والأخلاقية ، وكتابه « سوبر باشوات » رصد للمشاكل التى تعرض لها المجتمع المصرى في عقوده الأخيرة ، اما كتاباته التاريخية فقد تناولت تاريخ مصر في احقابه المتتابعة ، وكان حسين مؤنس يرفض تقسيم التاريـخ المصرى الى قديم ووسيط وحديث ، ويرى في ذلك تعسفا لأن تاريخنا متصل وغير منقطع ، وهو أشد اتصالا بالتاريخ العالمى وعلينا أن نتبع في تقسيمه تقسيم التاريخ العـــام لأننا أمة صنعت التاريخ أو عاشت فيه عمرها كله ·

كان الدكتور حسين مؤنس عاشقا لوطنه ، يتغنى بأمجاده ، وياسى لانكساراته ، ولكنه يرى أن لمصر رسالة يجب أن تؤديها في جميع الأحوال ، وأن عليها أن تواصل عطاءها للمجتمع الانسانى ، وتلك خصيصة من الخصائص التى لازمت الشخصية المصرية منذ فجر تكوينها · أما رسالة مصر فتتلخص في كلمتين اثنتين : النور والسلام · ويقدم الأدلة على أن مصر لم تقصر في أداء رسالتها تجاه العالم في كافة مراحل تاريخها ، ولم يتجمد هذا الأداء في فترات وقوعها تحت الاستعمار الأجنبى · ورغم نزعة اليأس والاحباط التى تسيطر الآن على الروح المصرية ، الا أن حسين مؤنس يرى أن على أبناء مصر المحدثين أن ينفضوا عن أنفسهم غبار الكسل والغفلة واللامبالاة ليستأنفوا مسيرتهم الحضارية ، ويرسم لذلك المسارات الكفيلة بالوصول الى هذا الهدف النبيل · وجعل من كتابه (مصر ورسالتها) الذى صدر في عدة طبعات برنامج عمل للنهضة المصرية الحديثة ·

وقد رأيت أن أعرض على القراء نماذج من الكتابات التى تناولت الشخصية المصرية ، فقدمت مقال الأستاذ العقاد عن طبيعة الأمة

المصرية ، ورأيت أن أعرض نموذجا لكتابات المثقفين العرب المحدثين عن مصر ودورها الثقافي والحضاري ، واخترت مقالا كتبه الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي السوري عام ١٩٣٣ م وبعد ان أعددت المقال للنشر مصحوبا بدراسة عن شخصية الكاتب والمناسبة التي كتب فيها المقال ، لا أدري لماذا توقفت (!!) وامتدت يدي الى رفوف مكتبتي واخرجت كتـــاب الدكتور حسين مؤنس (مصر ورسالتها) فنحيت المقال الأول مؤقتا وقدمت الثاني ، ويجب أن اعترف بأنني فعلت ذلك استجابة لذلك الاحساس الغامض الذي ينبثق في وجداني تجاه شخص معين وفي لحظة معينة تحمل في مضمونها أشباح الغروب ٠٠ وتحقق ما أحسست به ، ومضى الرجل الى جوار ربه راضيا بما أداه الى وطنه ، مرضيا بما يكنه له تلاميذه وقراؤه من حب واعزاز وتقدير ٠

وقد رأيت أن خير تكريم لهذا العالم الجليل أن أقدم الفصل الأخير من كتابه المذكور ٠ وهو الفصل الذي اختتم به سياحته في تاريخ مصر عبر القرون وانتهى فيه الى تحديد رسالة مصر الحضارية ، والأدوات التي نملكها لتحقيق هذا الدور ٠

● نور وسلام

رسالة مصر لم تختلف على طول الزمان وان تعاقبت الأعصر وتغيرت الأدهار ٠ فهي في كل زمان من مراكز الحضارة وحصونها ومهادها ، وأهلها في كل عصر قومة على تراث الانسانية ، أمناء على جانب كبير مما أبدع البشر في ميادين العمران ٠ ولعل بلدا من بلاد الأرض لا تصدق على حضارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ، فان مصر التي ولدت من نحو سبعة آلاف سنة ما زالت هي بعينها اليوم : لم يتغير فيها الدين على طول هذه الأحقاب الا مرتين ، ولم تتغير اللغة الا مرتين أيضا ، على حين أن بريطانيا مثلا لا يرجع

تاريخها الى أبعد من ألفي سنة ، تغير الدين خلالها مرتين واللغة أربع مرات على الأقل ، وأسبانيا يرجع تاريخها الى ألفين وخمسمائة سنة ، تغير الدين خلالها ثماني مرات واللغة ست مرات • أما جنسنا فلم يتغير في جملته خلال هذه الأعصر الا تغيرات طفيفة ، في حين أن بلدا كايطاليا تعاقبت عليه أجناس كثيرة غيرت عنصر السكان تغييرا تاما أكثر من مرة •

وقد رأيت كيف أن مصر كانت خلال هذه الأعصر المتطاولة ، أما صانعة الحضارة البشرية أو حفيظة عليها ، ورأيت في كلامنا عن مصر وأفريقية كيف قام بلدنا ـ دون أن تكون له سياسة مرسومة ـ بأهم دور حضاري في تاريخ هذه القارة قبل العصور الحديثة ، وكيف أن النور كان ينفذ الى نواحيها من بلادنا في حين هي ـ في حساب الدنيا كلها ـ قارة مظلمة ، ورأيت أن أشعاعات حضارتنا اخترقت الحجب ووصلت الى أقاصي القارة في صمت ، كما يتسرب الماء الى باطن الأرض ويجرى فيه أنهارا • واليوم يحدث مثل ذلك • ففي طول هذه القارة وعرضها ، وفي هذه اللحظة التي تقرأ فيها هذا الكلام ، يصغى الألوف من مواطنينا الأفريقيين الى الاذاعة المصرية ، وتقرأ ألوف أخرى من المحيط الأطلسي الى عدن نفس الصحف والمجلات التي تقرأها أنت ، وثق أنه ليس في هذه القارة انسان الا يداعب خياله حلم المجيء الى القاهرة •

ورأيت في الكلام عن علاقتنا بالبحر المتوسط وحضارته أننا وضعنا أساسها وطباقها الأولى ، وأننا لم نفقد مكاننا الطبيعي في البحر الا مرة واحدة ، هي التي جرت علينا فيها مصيبة الاستعمار ، وفيما خلا ذلك لم يخل مكاننا في عالم هذا البحر المتوسط ، حتى في العصور التي يخيل الينا أنها عصور هبوط ، كعصر الحكم الروماني ، فقد كانت مصر خلال نصفه الأول أعظم بلاده في ميدان الطب ، وكان أباطرة الرومان اذا أعياهم الداء بعثوا في طلب طبيب

مصرى ، وفى نصفه الثانى تألق نجم مصر المسيحية ، وقادت عالم النصرانية كله فى كفاح المذاهب ، بل ظل بلدنا محتفظا بعبقرية البناء والانشاء ٠

ورأيت فى الكلام عن الشرق أن حدود حضارتنا ترامت الى أبعد مما يتطمح اليه الخيال ، وأن هذه الحدود قد وصلت الى الخليج العربى وبلاد الرافدين ٠

وهذه الحقائق كلها التى تحدد لنا رسالتنا الحقيقية فى هذا الوجود ٠ وأنا لم أحاول أن أتخير الأمجاد وأجمعها ثم أقول : هذه هى رسالة مصر ! انما رأيت أن أسرى بك خلال تاريخنا الطويل لنتعرف اتجاهاته وأبعاده وأعماقه ، وعلى ضوء هذه الاتجاهات وفى حدود تلك الأبعاد والأعماق ، نرسم رسالتنا فى الحاضر والمستقبل ٠

واذا جاز لنا أن نصدر حكما على هذا التاريخ فى مجموعه ، فهو أن مصر بلد له رسالة معينة فى الوجود ، تتلخص فى كلمتين اثنتين : النور والسلام ٠٠

فأما رسالة النور فقد رأيت مصاديقها بما فيه الكفاية فى أطواء هذا الحديث ، وأما رسالة السلام فيكفى أن أقول لك سلفا ان أبسط براهينها هى أن ديانات مصر القديمة ديانات محبة وسلام ، وليس فى آلهة مصر القديمة آلهة تكره البشر وتغار منهم وتحقد عليهم كما كان الحال مع أرباب الاغريق والرومان والجرمان ، ثم اننا تركنا هذه الأرباب عندما ظهرت المسيحية تدعو الى المحبة والاخاء ، ثم انتقلت غالبيتنا الى الاسلام وهو دين السلام ، مثله فى ذلك مثل المسيحية ، ولا تنس أبدا أن أخاك القبطى أخوك فى وطنك ، وأنك اذا كنت مسلما فلأن أباك مسلم ، ولو كان أبوك غير مسلم لنشأت على دينه ففيم الفخر اذن ؟ انما يكون همك أن تكون مسلما صالحا ، والمسلم الصالح لا يتعصب ولا يغتر ، وانما هو يعرف أن الدين لله وأن الله لو شاء أن يجعل الناس أمة واحدة لفعل ،

وما دام سبحانه لم يفعل فلماذا يريد بعضنا أن يوجه التاريخ على غير ما أراد الله • ان كل واجبنا كمسلمين هو أن نوصل الاسلام الى الناس وندعهم بعد ذلك • فمن شاء الله سعادته فتح قلبه للدين وأسلم ، والا ظل على دينه ، وأنت لن تهدى من تشاء ولكن الله سبحانه هو الهادى • واذا كان بعضنا لديه حماس للدين ويريد نشره فأمامه الملايين من الكفار فى أفريقية وآسيا ، فليذهب الى هناك ليحمل رسالة الاسلام الى هؤلاء الاخوة وسيجد الألوف منهم يستمعون اليه ويدخلون الدين ، وسيدهش اذ يجد هناك دعاة المسيحية يعملون فى همة ، يعملون منفردين ويكسبون لدينهم الألوف ، ونحن هنا ندعو الى الاسلام فى حى الحسين : ونظن اننا بذلك نخدم الدين ، وفى الدنيا اليوم ألف مليون مسلم وألفا مليون مسيحى وثلاثة عشر مليون يهودى ، فتأمل هذه الحقيقة وسل نفسك : هل نحن نقوم حقا بواجب الاسلام ؟

ولم يقهرنا أحد على اعتناق المسيحية أو الاسلام ، وانما اعتنقناهما مختارين ، بل اننا لاقينا فى سبيل المسيحية الأهوال ، وغنم الكثيرون من أجدادنا الشهادة فى سبيلها حتى ليذكر تاريخنا فترة تسمى « عصر الشهداء » • وكذلك الاسلام لم يقسرنا عليه أحد ، فان الاسلام دين السلام لم ينتشر بالسيف أبدا ، وانما فتحت البلاد وترك أهلها أحرارا ليختاروا الدين الذى يحبون • ولعل سائلا يسأل عن المراد بالبلد الذى له رسالة ، فنقول ان الأمم كالناس ، فكما أن فى الناس من لهم مواهب ظاهرة وظروف خاصة تفرض عليهم التزامات لابد أن يقوموا بها حيال الآخرين ، كصاحب الموهبة العلمية أو الفنية ، الذى تطالبه هذه الموهبة بأن يقوم بحقها ، فيقضى عمره كله خادما لها ، فكذلك الحال مع الأمم : فيها ما يفرض عليه موقعه الجغرافى وما حباه الله به من نعم ، التزامات معينة حيال الانسانية كلها ، وفيها ما تنحصر مهمة أهله فى الاستمتاع

بالحياة عن أى طريق ، والأمم كثيرة أمامك تستطيع أن تجد فيها هذه وتلك •

ولقد وقفت طويلا عند كلامى عن علاقتنا بالبحر المتوسط والغرب ، ولم يكن لى من هدف الا أن أجلو هذه الناحية التى تراكم عليها تراب كثير يحول بيننا وبين ادراكها على حقيقتها ، وأرجو أن يكون قد استقر فى ذهن القارىء أن لنا مكانا خاصا فى عالم البحر المتوسط ، وفى الغرب كله بالتالى ، وأن عيلنا أن نحتل هذه المكانة اذا أردنا تصحيح اتجاهنا ، واذا أردنا الخير لهذه الدنيا وأهلها • فان فراغنا فى عالم البحر المتوسط لن يملأه غيرنا ، فنحن ملتقى الشرق بالغرب ، ونحن نقطة الاتصال بين قارات ثلاث ، ونحن نستطيع ان نقوم رسلا بين الجانبين ، وننقل الخبرات بين هذا وذاك : نحن باب أفريقية ، ننقل الى أهلها ما لدينا وما لدى غيرنا • ونصل به الى نواحى هذه القارة المظلومة التى لم ينصفها أحد •

فمن واجبنا أن نحمل النور الى بلادهم ، فان حضارتهم هى حضارتنا ، ومستقبلهم مستقبلنا • ومصيرنا ـ آخر الأمر ـ سيتقرر فى أفريقية ، لأننا لا يمكن أن نتجاهل الحقيقة الأساسية الكبرى فى جغرافية بلادنا ، وهى اننا دولة آفريقية ، نحن لسنا من الشرق ولا من الغرب ، وان كان لنا فى كل منهما نصيب ، ولكننا آفريقيون ، واذا اختل التوازن فى هذه القارة كان الوبال علينا ، فلنكن على الأهبة دائما ، ولنذكر دائما أن آسيا وأوروبا لن تقررا مصيرنا ، بل افريقية هى التى ستقرره ، وأريد أن أقول بذلك ان الأوضاع هى التى ستقرره ، فينبغى ألا ننسى ذلك أبدا •

واذن فواجبنا الأول هو أن نحافظ على حدودنا الحضارية فى القارة الافريقية • ينبغى أن نمهد طريق الحضارة بيننا وبين ناحية الغرب والجنوب ، ينبغى أن نوثق صلاتنا بكل بلاد افريقية وأن

نقف معها فيما تسعى اليه من القضاء على النظم غير الافريقية التى تحكم جنوبى افريقية وتحرير أهلها ، وانقاذ شعب ناميبيا من جريمة السرقة التى تنزلها جنوبى افريقية بأراضيه ، ومن نكبة الاستعمار الجديد وهو استعمال بالعلم والمعرفة وما يسمى بالتكنولوجيا . والغرب بطبعه أنانى تاجر ، فهو لا يعطى شيئا قط الا بمقابل ، حتى المسيحية ـ التى يزعمون أنهم ينشرونها فى افريقية ـ يبيعونها للناس فى النهاية ، فانهم اذا أدخلوا فى المسيحية انسانا أو شعبا اعتبروه بعد ذلك تابعا لهم دائرا فى فلكهم •

ومن عجب أننا ـ ونحن نعيش فى عصر يسمونه عصر النور والقانون الدولى ـ نجد الغرب يؤيد جرائم سرقة اصهيونية للوطن الفلسطينى وادعاءهم انه وطنهم ، وسرقة جنوبى افريقية لوطن كامل هو ناميبيا وجرائم أخرى كثيرة ترتكب فى هذه القارة التى لا يريد لها الاستعمار وأهله الاستقلال والعزة والكرامة أبدا •

وأنا لا أتحدث الآن عن السياسة ، أى اننى لا أضع حدود رسالتنا السياسية فى افريقية ، فهذا موضوع آخر ، وما اشارتى الى ضرورة القضاء على بقايا الاستعمار فى القارة وايقاف جرائم السرقات البشعة التى يقوم بها الغربيون ضد الأفارقة الا لأن ذلك تمهيد لابد منه لأداء مصر رسالتها الثقافية فيها • ولكننى أضع حدود رسالتنا العلمية ، وهى فى عرفى أثبت أساس يمكن أن تقوم عليه السياسات ، وهى ـ كما رأيت لباب تاريخنا وخلاصته ، وفى ذلك الميدان أقول ان رسالة مصر فى القارة الافريقية لا تعرف حدودا ، فلننشر النور فى كل مكان من افريقية نستطيع أن نصل اليه •

وقد وضع أجدادنا لبلادنا حدودا حضارية واسعة فى افريقية ، فعلينا أن نحافظ على هذه الحدود وقد اتسعت القارة اليوم واستقلت بلادنا ، وتفتحت أبوابها ، ومضى أهلها يطلبون العلم ، وقد خلف المستعمرون الماضون وراءهم لغاتهم أشبه بلغات رسمية لهذه البلاد ،

فبعضها يتخذ الفرنسية وبعضها يتخذ الانجليزية إلى جانب لغة بلاده الأصلية ، واللغة العربية أقرب الى قلوب أولئك الإخوة لأن فيهم الكثيرين من المسلمين ، بل أن بعضهم ـ مثل أهل الصومال وأريتريا ومالى ـ يريدون أن يجعلوا اللغة العربية لغتهم الرسمية ، فعلينا أن نقدم لهم العون فى ذلك السبيل ، فما من بلد افريقى تنتصر فيه اللغة والاسلام الا سيصبح حليفا لنا يوم من الأيام ، واذا كان مستقبل مصر سيتقرر فى افريقية فليكن هذا همنا الأول لا نقدم عليه شيئا ، ولنقم به بدافع المحافظة على النفس وتأمين المستقبل .

وانه لمن العجب أن أشعة النور الخارجة من بلادنا تصل دائما الى أبعد مما نقدر ، فان المصريين هم الذين نشروا الاســـلام فى السودان على ما قلناه ، ووصلوا به الى كردفان ، ودارفور ، وفى هذه النواحى المباركة من أرض السودان التى كانت تسمى واداى ، قام بنشر الاسلام شيوخ من أهل السودان تعلموا فى مصر ـ وفى الأزهر خاصة ـ وعلى أيديهم أصبحت هذه البلاد اسلامية ، ومنها انتشر الاسلام فى بلاد الكانم والبرنو فيما يعرف الآن بتشساد ، واتصل التيار حتى وصل الى نيجيريا ، وسار تيار اسلامى آخر من طرابلس الى فزان فكوار ووصل الى تشاد أيضا ، والى هذين التيارين يرجع الفضل فى انتشـــار الاســلام فى أجزاء كبيرة من افريقية المدارية .

ومن الطريف ما يذكر هنا أن نفرا من أهل السودان الذين درســـوا فى مصر اجتمعوا وأقاموا مسجدا فى الفاشر فى شرق السودان ، فتصور أن هذا المسجد كان ـ ولا يزال ـ من أعظم مراكز نشر الاسلام فى افريقية ! تصور أن عشرات الألوف دخلوا الاسلام فى صحنه أو على أيدى شيوخه ! تصور أن هذا المسجد الذى أنشأه الايمان قد قام وحده بأضعاف ما قامت به جماعات التبشير مجتمعة ! تصور لو أننا ضاعفنا جهدنا فى هذه الناحية ، وأنشأنا بجهدنا الفردى زوايا صغيرة فى قلب القارة ومضينا نعلم

وننشر رسالتنا ! لو أننا فعلنا ذلك لو وصلنا الى مدى بعيد ، ولحققنا شيئا يشبه المعجزة ، لأن مصير القارة الافريقية كلها فى الميزان . ومصيرنا نحن أيضا فى الميزان تبعا لذلك .

ولو أننا فعلنا ذلك لكنا مكملين فيه لعمل السابقين لنا من رجال الطرق الصوفية مثل التيجانية والقادرية الذين نشروا الاسلام فى افريقية الغربية عبر الصحراء ، وهنا لابد من تحية للسنوسية ومجاهديها ممن لهم الأيادى البيضاء فى نشر الاسلام فى افريقية .

ذلك أن الدين والسياسة يشد أحدهما أزر الآخر فى معركة افريقية ، والكنائس ووزارات الخارجية والهيئات الرأسمالية فى الغرب تعمل اليوم جاهدة لكسب المعركة الافريقية ، وهى قد بدأت بوضع العقبات فى الطرق التى يفيض منها نور الاسلام الى نواحى القارة ، وهى واثقة أنها اذا فعلت ذلك أوقفت تيار الحضارة الاسلامية لتفعل ما تريد .

فعلينا اذن أن نضع المعركة الافريقية فى المقدمة ، وعلينا أن نصمم على كسبها ، وأن يتجرد كل منا للقيام بدوره فيها ، وقد رسمت الخطوط العامة لذلك كله ، وفيه كفاية فى المجال المقدر لنا فى هذا الكتاب .

أما رسالتنا فى عالم العروبة فواضحة المعالم ، ونحن مدركون لها محققون لجوانبها والحمد لله . فهؤلاء هم أبناؤنا يحملون النور الى كل ركن من أركان هذا العالم العربى ، وها نحن لا ندخر وسعا فى سبيل التعاون مع اخواننا العرب ، للوصول بنا وبهم الى حيث نحب ويحبون .

بيد أن طبيعة رسالتنا فى العالم العربى تختلف بعض الشىء عن طبيعة رسالتنا فى افريقية . فنحن فى الميدان الثانى نجدد طريقا

قديما ونفتح طرقا جديدة ، ونرمي الى تغيير اتجاه القارة الافريقية ، لننجو بأهلها مما يدبر لهم ، ولكي نمهد هذه القارة لأبنائها ليعيشوا في ربوعها في سلام ، ولنطمئن نحن أيضا الى جدودنا في كل ناحية • أما رسالتنا في العالم العربي فسبيلها واضحة وأهدافها ظاهرة :

نحن نرجو أن يتحد ذلك العالم العربي ويكون جبهة حضارية سياسية واحدة لأن الصراع العالمي اليوم صراع جبهات وكتل لا صراع دول ووحدات ، وأى دولة تنفرد بنفسها أو تنحرف عن طريقها يصيبها العطب ، حتى أمريكا على ضخامتها وقوتها تحاول أن تتحد مع غيرها وتستعين به لتشد جبهتها في ذلك النضال ، فما بالك بنا نحن ؟ ثم اننا ينبغي ألا ننسى أن سبيل القوة الوحيد لنا جميعا هو أن نتحد وأن نتآخى ، وأن نبدو للعالم كله جبهة لا تشوبها ثغرة • نعم • فاذا انفصلت دولة من دولنا ، وأغراها غيرنا بهذا الكسب أو ذاك ، أو خدع رجال السياسة فيها بنظريات في الاستراتيجية والسياسة الدولية تقول اننا في حاجة الى أن نتحد مع الدولة العلانية ، اذا جازت هذه الحيلة وانفصلت هذه الدولة ودخلت في نطاق جديد ، فقد تخلت عن قواعدها الحقيقية وانحرفت عن طريقها وتعرضت للأخطار •

ولهذا فنحن نسعى الى الابقاء على هذا العالم العربي متحدا لخيره ولخيرنا ، كجزء من أجزائه ، وبديهي أننا لا نرجو بعد ذلك شيئا ، وحسبنا أن نضم الى صفوفنا أخواتنا العرب ونسير معهم في طريق واحد كالبنيان المرصوص •

ولقد كانت حدودنا في ناحية المشرق تنتهي عند حدود العالم العربي في عصر الاحتلال ، ولكن هذه الحدود قد اتسعت وأخذت صورة أخرى في عهد الاستقلال • فقد دخلنا في ميدان السياسة العالمية بمعناها الواسع ، وأصبحت جبهة كفاحنا هي الدنيا كلها ،

ومن ثم فقد أصبح لزاما علينا أن نضم الينا الأصدقاء والأحلاف في كل ناحية حتى نستطيع الثبات في الميدان .

وقد وجدنا الميدان فسيحا أمامنا ناحية الشرق ، فهناك الأمم التي تشبهنا في ظروف التاريخ ويجمعنا اليها كفاح الاستعمار ، وربما ربطتنا بها رابطة الدين ، ومن هنا فليس بعجيب أن نجد ذراع السياسة المصرية تمتد ناحية الشرق حتى تصل الى الفلبين ، فتعقد الخناصر مع باكستان والهند وأندونيسيا ، بل تمتد الى ما وراء ذلك فتسعى لتصافح جماعات المسلمين في الصين .

ولكن علينا واجب خاص نحو البلاد الآسيوية الاسلامية ، مثل الباكستان وايران وأفغانستان وأندونيسيا وماليزيا ، والتي يكون المسلمون نسبة عالية من سكانها مثل الهند وسيلان وبورما وتايلاند ولاوس والفلبين ، فان رابطة الاسلام رابطة دم ونسب ، وما من مسلم في الدنيا الا يحب مصر ويهفو قلبه اليها . ولقد سئل سياسي أوروبي مرة : كيف تقسم المعونات المالية التي تخصصونها لافريقيا ؟ فقال : بحسب نسبة انتشار المسيحية في بلادها .

وهذه أيضا ينبغي أن تكون القاعدة التي يجب أن تقوم عليها سياستنا في آسيا وافريقية ، فكلما زاد انتشار الاسلام في بلد من بلادهما كان ذلك البلد أقرب الينا وأولى بمودتنا وحبنا . ولا يخدعنا قول من يقولون أن زمان الدين قد انتهى ، فان زمان الدين لن ينتهي أبدا ، وما زال هو العصب الأول الذي يربط الجماعات بعضها ببعض ولا يربط بلاد الغرب بعضها ببعض شيء مثل المسيحية ، فكيف ننخدع بمثل هذا ونتخلى عن قاعدة الاسلام ونحسب أن القول الفصل اليوم للعقل والعلم والمال فحسب ؟

ونحن لا ننكر هذه ولا نقلل من أهميتها ، ولكننا نقول : والدين أولا .

وليكن ردنا على من يريدون خداعنا أن عمر هذه الدنيا ليس عاما واحدا ، وأننا لم نولد بالأمس ، ولهذا لا نستطيع أن ننسى

خمسة آلاف عام من تاريخنا ، لا نستطيع أن نستبدل بتجارب هذه الآلاف من السنين وميضا عابرا من ذكاء مفكر أجنبي ·

لقد أعطتنا مصر كل شيء

وليس في الدنيا وطن هو أكرم على أبنائه منها ·· فبينما لا يبقى في قيد الحياة في كثير من الأوطان الأخرى غير القوى المكافح الشديد الاحتمال ، يعيش هنا في مصر القوى والضعيف ، والقادر والعاجز ، والصحيح والمريض · ومصر الكريمة لم تبخل على أحد بشيء ، حتى أولئك الذين لا يستحقون نعمة الحياة يعيشون على أرضها الطيبة الرحيمة دون مجهود كبير ·

وبينما لا يتسع معظم البلاد الأخرى للأجانب يتسع قلب مصر الكبير لكل وارد عليها ونازل في رحابها ، حتى وصفت مرة بأنها بلد الغريب ··

وعلى طول العصور الوسطى كانت مصر موئل كل باحث عن وطن ، ووجهة كل طالب علم ، وميدان كل طالب مال ، هنا اتسع المجال للناس أجمعين ، فنزلوا رحاب هذا الوطن واندرجوا في غمار أهله وأصبحوا من يوم نزولهم به مواطنين فيه ·

هذا الكرم كله من مصر ، هذا العطاء كله من أم الدنيا ينبغي أن يقابله عرفان بالجميل ، وعرفان الجميل نحو الأوطان لا يكون بالكلام ولا باللسان ، وانما بالروح والدم والمال وكل عزيز ·

ولنقل بصراحة : ان مصر لم تنل من معظم بنيها جانبا مما لها عليهم من حقوق ··

كلنا نجري وراء أرزاقنا ، وكلنا نحسب اننا بهذا الجرى نقوم بالواجب وزيادة ·

كلنا يستهلكنا السعي وراء اقتناء البيت والعقار ، وكلنا يهلكنا التطلع الى كمالات الحضارة من فاخر الأثاث وغالى الرياش والمختار من الطعام ·

كلنـا نلهث وراء رزق أولادنا ونلبى مطالبهم قدر طاقتنا ، وفوق طاقتنا .

وكلنا نحسب أننا ـ بهذا ـ نقوم بالواجب ، كل الواجب .. ولكن مصر ..

من يسهر على مصالحها ؟ من يبنى حاضرها ويرعى مستقبلها فى كل ما يعمل ؟ ..

● قليلون ..

أتريد أن تعرف كم هم قليلون ؟

ما أكثر ما أعطيتنا وتعطيننا أيتها الكريمة ..

وما أقل ما نعطيك ..

وما أكثر ما ننساك ..

ما أشد بخلنا عليك ..

ما أكرمك علينا ..

وما أسخى يدك على كل محتاج .

ويا ويلنا يوم الحساب ..

ونحن اليوم فى ساعة حساب ..

ان مصر تمر اليوم وفى كل يوم بظرف عصيب لأن موقعنـا الجغرافى مطمع الأمم جميعا ، ولعلى لا أكشف سرا عندما أقول ان الصهيونيين عندما استقر رأيهم على أن يقيموا دولتهم فى فلسطين كانت مصر هى مطمعهم ، فاذا لم ينزعوا منا أرضا حلوا مكاننا فى الموقع الجغرافى الذى لم ننتبه نحن الى أهميته الحقيقية الى الآن ، ان مصر تواجه عدوا خطرا شريرا يتوعدها بكل شر ، ولا يرده الا العنف والقوة ، فلابد لكل منا أن يوطن نفسه على أن يكون جنديا فى المعركة وأن يضـــع كل ما يملك فداء لمصر ، بالعمل لا بالكلام ..

ولا يحسبن واحد منا أنه يضحي بالكثير عندما يقدم حياته في سبيل هذا الوطن الأكرم ، فما قيمة الحياة مع الذل ، وما معناها في ظلال الخوف ، وأي مستقبل نطلبه لأبنائنا اذا كان وطننا نفسه مهددا ؟ وماذا يجدي أن نوجه الجهد كله في تكوين هذا الابن طبيبا والآخر مهندسا ، اذا كانا مهددين بعد الفراغ من الدراسة بألا يجدا وطنا يزاولان فيه العمل الذي استعدا له ؟

ـ ما هذا التهافت على المتاع وعدونا يتهافت على الموت ؟ ..

وكيف نرجو النصر ونحن نتعلق بأهداب الحياة ، في حين أن النصر لا يدركه الا من يطلب الموت ؟

كيف يستحل بعضنا أن يغش أو يخدع أو يسرق أو يرتشي ويحسب بعد ذلك أنه ما زال مصريا يتشرف بهذا النسب الأكرم ؟

● ان مصر بلد عظيم جدا ..

ان غيرنا تملأ الحسرة والحسد نفسه وهو يتأمل ما خلفه أجدادنا من بدائع العلوم والفنون ، ولكي يكون المصري جديرا بمصر لابد أن يهون كل شيء عنده في سبيل مصر .

ولا نقول هذا الكلام استرسالا مع العاطفة أو شحذا للهمم وانما نقوله لأنه حقيقة ، بل هو الحقيقة الوحيدة التي يهمنا أن تستقر في نفس المصري .

وأنت تنظر الى بلاد قوية عزيزة قائدة غنية مثل انجلترا وفرنسا مثلا ، وتعجب بما ترى ، فأرجو أن تذكر أن هذه البلاد ما وصلت الى ما ترى الا بفضل من مات في سبيلها من أبنائها ، وكل انجليزي أو فرنسي تراه انما هو بقية من عشرات ماتوا في سبيل أوطانهم .

ومنذ عرف الناس انجلترا وهي في حرب في سبيل بقائها وسلامة أراضيها • وحتى في يومنا هذا - وهي ليست في حرب - لا يمر يوم دون ان يقتل في سبيلها رجال وشبان في ايرلندا والشرق الأقصى وافريقية ونواح أخرى من العالم ••

وقد خسرت روسيا في الحرب العالمية الثانية فوق العشرين مليون رجل ، ودماء هؤلاء وتضحياتهم هي التي وصلت بروسيا الى ما نراه اليوم •

وأحب أن تذكر أن أكثر الناس تضحية بالحياة هم الذين لحياتهم قيمة ، فالشاب مثلا يغامر بحياته مع أن بساطها ممدود أمامه ، في حين نجد العجوز المسن ضنينا بحياته على قلة ما بقي له منها وندرة استمتاعه بها •

وأشد الناس حرصا على الحياة هم الصعاليك والمتسولون ومن اليهم ممن حياتهم كعدمها ، وانك لتجد المتسول لاصقا بالأرض يعيش في التراب كأنه حشرة ، ومع ذلك فهو أشد الناس حرصا على حياته لا يغامر بها أبدا ، على حين تجد الطبيب الشاب يغامر بحياته في سبيل الآخرين ، وتهون عليه نفسه لانقاذ المريض والمصاب مع أن أسباب الرخاء والمتاع بين يديه •

وكل الذين جاهدوا في سبيل مصر وماتوا في سبيلها كانوا من خيرة الشباب وأوسعهم آمالا ، وانك لتتتبع شهداء ثورة سنة ١٩١٩ وشهداء معاركنا مع العدو الصهيوني شهداء حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ وشهداء معركة النصر والكرامة في أكتوبر سنة ١٩٧٣ ممن بذلوا حياتهم مقبلين غير مدبرين فتجد معظمهم من أبناء المياسير وأولى النعمة والمجاهدين في سبيل الارتقاء بحياتهم وحياة أوطانهم ، في حين أن الذين يتطايرون نجاة بأنفسهم عند الطلقة الأولى هم غثاء الشوارع والمتسكعون في الحواري والأزقة •• هؤلاء لا يضحون بأنفسهم أبدا !!

فان كانت نفسك هينة عليك فى سبيل مصر ، فاعلم انك مواطن له قدر ومكان ، أما اذا أحسست الخوف والحرص على حياتك اذ تهدد وطنك الخطر فاعلم انك من الذين يوجدون كما توجد الأشياء ولكنهم لا يعيشون كما يعيش البشر ٠

وما دمنا قائمين فوق أرضنا وصدورنا غرض للرصاص فى سبيل الأوطان ، وما دام الخوف لا يتسرب الى نفوسنا فما عدونا ببالغ منا شيئا ٠٠ لنذكر دائما أننا نذود عن أرض مصر ، وطننا وحصننا الذى لا وطن ولا حصن لنا سواه ٠

ولنذكر أننا مهما بذلنا فى سبيل مصر فما نحن بمضحين بشىء ٠ والواحد منا عندما يهب حياته فى سبيل مصر فهو لا يفعل أكثر من أن يرد الى مصر بعض فضلها ٠٠

- بوركت أرضك يا مصر ، وبورك نيلك ، وبورك هواؤك ٠٠
- وطوبى لمن يبذل حياته فى سبيلك ٠٠
- وطوبى لمن تكتبين له الخلود فى سجل شهدائك ٠

باريز العـــرب

- مصر في عيون العرب هي باريس بالنسبة لأبنـاء أوروبا ، عاصمة الأدب والعلم وحاضرة الثقافة ، وحاملة مشعل التنوير والتقدم خاصة في العصور الحديثة ، لأن مصر كانت أسبق الدول العربية في مضمار الحضارة المعاصرة ، والعرب يعترفون بذلك ولا ينكرونه ، ولا يجحدون فضل مصر ورسالتها الحضارية ، ولكن مشكلتنا نحن المصريين أننا نطالب العرب بأن يسجلوا هذا الاعتراف على أشرطة لتذاع ليل نهار حتى نشعر بالرضا ونعوض النقص الذى نشعر به بسبب تفاوت الدخول والثروات بيننا وبينهم ونحن نخطىء حينما نجعل المال وحده معيار الفقر والثراء ، وهو معيار مضلل ، لأن مصر غنية بما هو أغلى من المال ، هو ثروتها الحضارية والثقافية والعلمية والأدبية التى تنامت على امتداد الأجيال ، وباتت تشكل رصيدا هائلا تتضاءل أمامه كنوز قارون ، ويحضرنى فى هذا المقام كلمة منسوبة الى الزعيم البريطانى المشهور ونستون تشرشل قال فيها ان بريطانيا لو خيرت بين نصف مستعمراتها ـ التى لم تكن الشمس تغرب عنها ـ وبين مؤلفات شكسبير ، فانها تختار شكسبير ، ويمكن أن تقول نفس الشىء عن فولتير فرنسا ، ودانتى ايطاليا وجيته ألمانيا ، وطاغور الهند ، وتولستوى وتشيكوف وبولشوى روسيا . فكل هذه الرموز تمثل كنوزا تعتز بها الأمم وتفخر ، ونحن لسنا فقراء فى كنوزنا العقلية ، ولو سردت عليك أسماء العقول النيرة التى أنجبتها مصر منذ رفاعة رافع الطهطاوى الى نجيب محفوظ فلن يسعنى المجال ، فما بالك لو أحصيت لك قوائم علمائهـــا فى العهود الاسلامية والقبطية والبطلمية الفرعونية (!!) .

نحن لسنا فقراء كما يشيع بعضنا ، ولا ينبغي أن تقوم عقدة بيننا وبين اخوتنـــا العرب بسبب ثرائهم ، فالعـلاقات الروحية والانسانية بيننا وبينهم قامت على أساس الأخذ والعطاء منذ أقدم العصور ، ولا تنسى أن المسيحية جاءت الينا من فلسطين ، وان نور الاسلام أشرق علينا من الجزيرة العربية ، واننا نتكلم لغة واحدة هى لغة القرآن الكريم ، وان سوريا ولبنان ساهمتا فى بناء المسرح المصرى ، وشاركتا فى ازدهـار الصحافة المصرية · وكان للشوام رواق فى الأزهر ، وفى حلقة جمال الدين الأفغانى بمقهى متاتيا بالعتبة الخضراء كنت تجد شابا سوريا مسيحيا اسمه أديب اسحق ظل وفيا لأستاذه حتى آخر نفس فى حياته · وفى مقاهى الحسين كنت تصادف المفكر السورى الكبير عبد الرحمن الكواكبى الذى فر بمقالاته النارية عن الاسـتبداد من بلده حلب لينشرهـا فى « المؤيد » حتى مات مسموما ولا يزال قبره مجهولا فى قرافة القاهرة ، وفى المنتديات الأدبية تجد الشابة اللبنانية الرقيقة « مى » التى جعلت من صالونها الأدبى محرقة يكتوى فيها كبار الأدباء والشعراء فينطقون شعرا رومانسيا عذبا ، وفى سوق الصحافة تجد جورجى زيدان يؤسس « الهلال » وبشارة تقلا يبنى « الأهرام » وكان كل هؤلاء يعيشون فى مصر دون احساس بالغربة لأنهم كانوا يجدون فى مصر رحابة الصدر ، وصفاء القلب ، والاحساس بالأمان الذى يفتقدونه فى أوطانهم ، لأن وطأة الحكم العثمانى كانت شديدة فى الشام بينما كانت مصر تنعم بقدر كبير من الحرية ·

لم تكن مصر فى يوم من الأيام تحمل نبرة الاستعلاء على العرب ، ولم يكن العرب يشعرون بأى فارق بينهم وبين المصريين ، كان القائد البطل ابراهيم باشا يفخر بأنه عربى ، ولا يزال اللبنانيون يطلقون على النقود « مصارى » نسبة الى مصر ، وكثير من العرب تربطهم صلة النسب والمصاهرة ويفخرون بأنهم ينحدرون من أمهات مصريات منذ تزوج أبو الأنبياء ابراهيم من هاجر المصرية ، ومنذ تزوج رسولنا

الكريم من مارية القبطية ، والشباب العرب يعتزون بأن أخوالهم مصريون ، وانهم تلقوا تعليمهم على أيدى معلمين مصريين سواء فى مصر أو فى مواطنهم حيث كانت مواكب المعلمين المصريين تذهب اليهم قبل ان يظهر النفط .

تقدير لمصر :

يجب أن نثق فى أنفسنا وفى تقدير العرب لنا ، وأعرض لك اليوم نموذجا ـ هذا التقدير على لسان واحد من أعلام الفكر العربى هو الأستاذ محمد كرد على أحد قادة حركة البعث الأدبية فى الشام منذ مطلع القرن الحالى ، وكان رئيسا للمجمع العلمى العربى فى دمشق وهو يوازى مجمع اللغة العربية فى مصر ، وقد عاش الأستاذ محمد كرد على فيما بين عامى ١٨٧٦ و ١٩٥٣ ميلادية ورحل فى شبابه الى مصر وتتلمذ على الامام الشيخ محمد عبده وشارك فى تحرير مجلة « المقتطف » التى كان يصدرها يعقوب صروف ، وصحيفة « المؤيد » التى كان يصدرها الشيخ على باشا يوسف ، وبعد اعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م عاد الى دمشق وأصدر صحيفة « المقتبس » اليومية وجعلها منبرا لمقاومة عملية « التتريك » التى كانت تمارسها سلطات الحكم التركى ، فقبضوا عليه وأوشكوا على اعدامه ضمن المذبحة التى دبرتها السلطات العثمانية للأحرار العرب ، لولا انهم أطلقوا سراحه مقابل ان يتولى رئاسة تحرير جريدة « الشرق » الناطقة باسم الجيش التركى خلال الحرب العالمية الأولى ، وعندما أنشىء المجمع العلمى تم اختياره بالاجماع رئيسا له ، أما آثاره العلمية والأدبية فهى كثيرة ، منها كتابه « الاسلام والحضارة » فى جزءين ، وخطط الشام ، وقام بتحقيق كتاب « سيرة أحمد بن طولون » للمؤرخ البلوى ، وتحقيق كتاب « تاريخ حكماء الاسلام » للبيهقى ، وسجل تجاربه الذاتية فى « مذكرات » وجمع بعض مقالاته فى كتاب « القديم والحديث » وهو أحد الكتب التى اعتز باقتنائها ،

وقد اخترت لك المقال الأخير في هذا الكتاب لأعرضه عليك كنموذج لرؤية كاتب عربي مرموق لقيمة مصر الحضارية ودورها في تحديث العالم العربي حتى انه أطلق عليها « باريز العرب » وعاصمتهم الأدبية تشبه ايطاليا في عهد النهضة · « ومن مصر سار أمس ويسير اليوم وسيسير غدا شعاع من هذا النور النافع فيعم الأصقاع العربية كافة ، ويومئذ يغتبط العرب ويهنئون ·· » ·

تأبين :

وهذا المقال هو نص خطاب ألقاه الأستاذ محمد كرد علي في عام ١٩٢٣ في الحفل الذى أقامه المجمع العلمي السورى لتأبين عالم الآثار المصرية الشهيرأحمد كمال باشا · وقبل أن أعرض عليك الخطاب ينبغي أن أحدثك حديثا يسيرا عن صاحب المناسبة أحمد كمال باشا الذى عاش فيما بين عامى ١٨٤٩ و ١٩٢٣ ميلادية وهو أول عالم مصرى يتخصص في التاريخ الفرعونى الى جانب ماربيت وماسبيرو ·· وتعتز رفوف مكتبتي بأنها تضم الطبعة الأولى من كتابه الجليل المسمى « العقد الثمين في محاسن وأخبار وبدائع آثار الأقدمين من المصريين » تأليف الفهامة النجيب الفطن اللبيب أحمد أفندى كمال معلم التاريخ واللغة الفرنساوية والبربائية ومترجم الانتيقة خانة المصرية وناظر مدرستها البهية ، والكتاب مطبوع بالمطبعة الميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٣٠٠ هجرية ، وتقابل سنة ١٨٣٣ ميلادية · وقد استهل كتابه على نفس النمط الذى كان سائدا في عصره · فبعد البسملة يبدأ بحمد الله « الذى أقام تاريخ الأمم الماضية شاهدا على وحدانيته ، وجعل قصص أهل القرون الخالية دالة على تمام قدرته والصلاة والسلام على صاحب الآيات البينات وعلى آله وأصحابه الذين رفعوا قواعد الاسلام بالفتوحات ، وبعد ، فيقول مترجم الانتيقة المصرية وناظر مدرستها البهية المتواضع لربه المتعال المعترف بعجزه أحمد كمال هذا تاريخ قدماء المصريين

المبين لاحوال من حكم مصر منهم فى كل حين · اقتطفه من آثارهم القديمة ، واستنبطته من التواريخ ذات الفوائد الصحيحة ، وعزوت كل نص لناقله ، وكل حكم لقائله ، قاصدا بذلك صحة الاسناد ، وقوة الاعتماد ·· ثم يمضى المؤلف فى سرد معلوماته القيمة عن تاريخ مصر القديم ·

وقد وردت ترجمة أحمد كمال باشا فى الموســوعة العربية الميسرة على النحو التالى : أول عربى تعشق تاريخ مصر الفرعونية وجعل حياته وقفا عليه ، ومضى يبحث فيه بهمة منقطعة النظير ، وظل ينفق فى سبيل ذلك جهدا متصلا حتى وفق الى ايقاظ المواطنين من أبناء جيله وتنبيههم الى واجبهم حيال تاريخ وطنهم ، واستطاع على الرغم مما قام فى سبيله من عقبات ان ينشيء مدرسة عربية وطنية كان لها الفضل فى اقبال المصريين على دراسة تاريخ وطنهم المجيد ، مات سنة ١٩٢٣ وما زالت تضطلع بهذه الدراسة حتى اليوم ، ترك لنا من بحوثه ثروة غنية ، والآن ·· لنستمع الى خطاب الأستاذ محمد كرد على :

النبوغ المصرى :

يا سادتى ويا اخوانى

منذ نحو مائة سنة والقطر المصرى ينهض نحو الرقى ويحتذى مثال الغرب فى نهوضه · وكان من قبل لولا جامعه الازهر الدينية أشبه بكثير من بلاد العرب فى قلة العلم والنور · وبالأزهر المعمور لم ينفك المصريون على اختلاف أعصارهم وأدوارهم ان يكون فيهم من اذا سئل سدد فى علوم الشريعة وما يلزمها من علوم اللسان ·

ولقد خلد التاريخ اسم « محمد على الكبير » جد الأسرة المالكة الحالية بما أسداه الى مصر من الأيادى البيضاء فانعشها من سقطتها ،

وايقظها من طويل رقدتها . ولو كتب له تحقيق جميع امانيه الشريفة لكان العرب اليوم من أرقى الدول الكبرى في العالم . فانه رحمه الله لم يترك بابا من أبواب النهوض المادى والعلمى الا وطرقه على أجمل صورة وعمل بجميع الأسباب لحياة مصر .

وكان لعلمـــاء الفرنسيس الذين استصحبهم نابوليون في حملته على مصر والشام يد طولى في وضع أساس هذه النهضـــه المباركة على النظام الأوروبى . وعد علماء فرنســا من بعد العامل الأقوى في معاونة محمد على على اسعاد القطر ثم جاء علماء الانكليز والألمان والطليان وغيرهم من أمم أوروبا وخدموا مصر بتنظيم سككها واصلاح ريها ، واحياء زراعتها ، واستخراج آثارها وانماء القوى المفكرة العاملة في بنيها .

نعم كان العلم في مصر حتى الثلث الأخير من القرن الماضي لا يتعدى الا قليلا دائرة الدينيات والأدبيات . ولمحمد على الكبير يرجع الفضل الأكبر في بث مبادىء العلوم التي يسمونهـا خطأ الحديثة ، اذ كان لأجدادنا فيها القدح المعلى ، وهم الذين نقلوها الى أمم الحضارة الحديثة مشفوعة بأبحاثهم وزياداتهم واختراعاتهم وبعد عهد محمد على ضـعفت العناية بالعلوم كان انقطع سندهـا دهرا طويلا ، وكادت البلاد تدخل في سبات مؤلم وتنيت مميت . كان ضعف العلم بعد عهد شارلمان في فرنسا . وبين محمد على وشارلمان شبه كبير في التناغي بحب المعارف والفضائل . وكذلك حدث في الاستانة بعد دور الفاتح فانقطعت الرغبة في العلم بموت السلطان محمد الثاني وكاد يزال كل ما أسسه لاحيـاء معالمه . والارتقـاء والانحطاط ولا سيما في هذا الشرق القريب تبع للفرد أكثر من الجماعة ، فان أسعد الحظ الأمة بسلطان عاقل عادل سعدت ونجحت والعكس بالعكس .

ولمـا انتهى في مصر دور النـاقلين والمترجمين والجامعين والمقتبسين في بعض ضروب العــلم ، جاء دور الباحثين والمؤلفين

والمبدعين ، واستطاع المصريون باصلاح شئونهم الاقتصادية ان يتلقوا العلم الصحيح فى جامعات الغرب ، فكان لهم على الدوام بضع مئات من الطلبة ، وكثر ارتحال الأوروبيين الى مصر وطواف المصريين الى أوروبا ، واشتد التمازج بين المصرى والغربى فاقتبس المصرى بعض ما ينقصه من أساليب النهوض ، وكان لادخال الاصلاح على الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى والحقوق والزراعة والهندسة وغيرها من المدارس العالية والثانوية والابتدائية ولا سيما الكتاتيب فى القرى والمزارع ما نراه من آثار نهوضها فندهش له ونهش وكلما كثر سواد المتعلمين هناك جاء منهم طبقة أمثل من التى سبقتها • وتراجع كل نتفة فى العلم والصنائع وأصبحت الكلمة للأخصائيين والمفننين • وكلما استحكمت حلقات هذا الرقى استغنت مصر عن الغريب واكتفت بعقول العاملين من رجالها • سنة الخالق فى النشوء والارتقاء •

تطورت مصر فى نهضتها الأخيرة أطوارا كثيرا فكان الضعف يعروها تارة والقوة تصاحبها أخرى • وكان يعد نوابغ رجالها بادىء بدء بالآحاد فأمسوا يعدون اليوم بالمئات • وكلما امتزج المصرى بعنصر آخر من العناصر الشرقية حسنت ملكاته ، وصحت على الترقى ارادته ونياته • وقد نبغ لعهدنا رجال ليسوا مفخرا من مفاخرها فقط ، بل هم مفخر العرب والشرق عامة ، ومنهم والحق يقال أفراد لا يقلون عن أرقى علماء الغرب فى ذكائهم ومضائهم وبحثهم ودرسهم ، وذلك فى مجموع العلوم البشرية ولا سيما فى الهندسة والكيمياء والتصوير والطبيعة والحقوق والطب والجراحة والسياسة والادارة ومن أعظم نوابغها زميلنا أحد أعضاء المجمع العلمى العربى المرحوم أحمد كمال باشا الذى نحتفل الآن بتكريم اسمه واستمطار الرحمات عليه فقد كان أجزل الله ثوابه مثال النبوغ المصرى وآخر طراز كامل من أفراد الدهر • رزق صفات العالم العامل ، وصرف نقد عمره فى خدمة الآثار ، ولا سيما علم الآثار المصرية حتى أصبح

على صعوبة هذا الفن وحداثته الحجة الثبت فيه ، فكان اذا كان ذكر في الغرب والشرق علم الآثار المصرية يتمثل في شخصه ويتجسد في جهاده · عمل هذا بعيدا عن الجعجعة في زاوية صغيرة من بلده ، فعمت شهرته الخافقين ، ولم تخف جلائل أعماله على الغريب دع القريب ·

أيها السادة · اذا قام مجمعنا بتعداد بعض مآثر نابغة الشرق في الآثار فانه يقضي واجبين واجبا للعلم بتكريم أحد حملته وأساطينه وواجبا آخر أعم وهو التنويه بذكر النابغين من المصريين وتمجيد النهضة العلمية المصرية التى لها الفضل الأعظم على نهوض العرب النازلين في ارجاء انقارتين العظيمتين آسيا وافريقية لمصر ولرجال مصر ، ولا نكران للجميل ، أثر ظاهر في الأمة العربية والاسلام ، فاذا ذكرنا مصر فاننا نذكر آخر دولة انحطت من ممالك العرب وأول دولة نهضت فيه · اننا بترداد اسم مصر نذكر أمة حفظت لنا تراث الأجداد · ننوه بشعب كريم احتفظ بلساننا ومشخصاتنا ، ولولا مصر بعد عهد الجراكسة والترك لاضمحلت العربية ومقوماتها ، ولتأخر نهوض العرب قرونا ، وكنا الى الاندماج في غيرنا من العناصر المتغلبة ، ولساءت حالنا العلمية أكثر مما ساءت ، وشاهدنا ونشاهد تخريباتها في جسم جامعتنا ومجتمعنا ·

انتفع الشام وهو القطر الشقيق الأصغر لمصر المحبوبة بالنهضة المصرية أكثر من عامة الأقطار العربية للجوار وأواصر القربى وكثرة التشابه بينهما ، ولأن أقدارهما في عهد الدول الاسلامية كانت واحدة وحياتهما الاجتماعية متجانسة · هكذا كانت مصر والشام في دولة الراشدين والدولة الأموية فالعباسية فالطولونية فالفاطمية فالأيوبية فدولة الأتراك المماليك فدولة الجراكسة فدولة الترك العثمانية وكانت مصر مبعث حضارة في معظم أزمانها كما كانت في العقود الأخيرة من حياتها ملجأ ومعتصما للأحرار · ومباءة ممتازة للعلم الاسلامي تأخذ عنها الأقطار والأمصار ·

نعزى مصر بفقيدها النابغة ونحييها بهذه المناسبة ونرجو لها حياة طيبة بأبنائها النجباء . نحيي بها أهم جزء من بلادنا العربية طالما حتى على العرب وحمل النور اليهم مغتبطا . مصر اليوم باريز العرب وعاصمتهم الأدبية تشبه ايطاليا فى عهد النهضة أواخر القرون الوسطى ، وكان سرى منها ضياء المعارف والفنون الى سائر ممالك أوروبا فقامت بتأثيرها المدنية الغربية الحديثة . ومن مصر سار أمس ويسير اليوم وسيسير غدا شعاع من هذا النور النافع فيعم خيره الأصقاع العربية كافة ، ويومئذ يغتبط العرب ويهنئون لابرازهم بفضل قرائح بنيهم آثارا حسنة فى العلم والصناعة ، كما فعلت يابان فى القرن الماضى ، وعندئذ يعيد الشرق الى الغرب ما كان استبضعه من بضائع العلوم والصناعات ، ويقضى الدين مع الشكر ويرد القرش عشرة ، فنعد شيئا من مجموعة المدنية الحاضرة كما كنا فى العصور السالفة كل شيء ، وكان لنا الأثر المحمود فى تكوين المدنية الغابرة .

والآن أترك الكلام لرصيفى الأستاذ معلوف يتلو على مسامعكم صورة مصغرة بل مجسمة من عمل عضونا الذى فجعنا بفقده يتمثل لكم فيها النبوغ المصرى أحسن تمثل . ونرفع تعازينا وأسفنا من ضفاف بردى الى بنى قومنا على شطوط النيل المبارك لفقد رجلهم ورجلنا العزيز ونطلب له من المولى تعالى العفو والرضى والرحمة وانا لله وانا اليه راجعون .

كـرامة المصريين

هل صحيح أن المصريين خانعون اذلاء يصفقون لكل طاغية . ويهللون لكل مستبد ولا يميلون الى مقاومة الظالمين ويتركون هذه المهمة الى القوى الغيبية الى أن تدركهم رحمة السماء ؟ هذه المفتريات شاعت على ألسنة عتاة الاستعمار من أمثال كرومر الذى قال ان المصريين تجمعهم صفارة وتفرقهم عصا (!!) ثم تناقلتها أقلام كتاب الغرب الموالين لبلادهم وحكوماتهم ، ونحن قد نفهم مبررات ذلك وهو تحطيم روحنا المعنوية حتى نظل عبيدا لهم ، ولكن الذى لا نفهمه أن تتسلل هذه المفتريات الى اذهان بعض المثقفين المصريين ، ومنهم الى عامة الناس حتى تستقر فى الأذهان كأنها حقائق ، ذلك أننـــا تعودنا على أن نعجب ونثق فى كل ماهو أجنبى ، ونتشكك فى كل ماهو وطنى أصيل ، والقارىء المدقق للتاريخ يكتشف أن المصريين لم يكفوا عن مقاومة الظالمين ، ولم يقصروا فى مقاومة الغزاة .. ثورات كثيرة قامت فى العصور الفرعونية المتأخرة عندما وقعت مصر تحت حكم أجانب تسللوا اليها عن طريق الهجرة والاستيطان ثم انقضوا عليها عندما حرموا على أبناء البلاد دخول الجيش وجعلوه مقصورا على المرتزقة الأجانب .

ماذا تنتظر من شعب أعزل يتكون جيشه من المرتزقة والمغامرين الذين لاتربطهم بالبلاد حمية الانتماء أو صـــلة الدم أو اللغـــة أو الدين ؟ وسيظل حكام مصر منذ الاغريق والرومان والعـــرب والترك والشركس يحرصون على ابعاد المصريين عن الجيش ، الى أن يأمر محمــــد على فيكسر القاعدة ويؤسس أول جيش مصرى مادته الأساسية من الفلاحين ، هذا الجيش هو الذى حمل عبء تحديث مصر الى أن حانت له فرصة الانقضاض على ظلم الشراكسة والأوروبيين فانقض بقيادة فلاح مصرى اسمه أحمد عرابى .

هل قرأت تاريخ الانتفاضات الشعبية في العصر المملوكي ؟ لماذا لا تقرأها حتى تقف على الحقيقة التي حرص الخونة على اخفائها حتى يحطموا معنوياتنا ويزرعوا في نفوسنا أننا أذلاء ٠٠ صابرون ٠٠ مستسلمون للظلم (!!) ٠

لن أدافع عن بني وطني كما يدافع المحامي الشاطر عن موكله ٠٠ فيخفي أخطاءه ، ويظهر محاسنه كي يحصل له على البراءة ٠٠ ولكنني سأعرض عليك الحقائق بقدر ما عثرت عليها في بطون الكتب ٠٠ تنطق بما ينبغي أن تعرفه ٠٠ وبما يمحو عن شعبنا فرية الجبن والخنوع الاستسلام للظلم ٠٠ ذات يوم فوجئنا بسلطان المسلمين في تركيا ـ سليم الأول ـ ينوى فتح بلادنا وضمها الى ممتلكاته . وتحرك على رأس جيش لجب مسلح بأحدث أسلحة الحرب ، كانت الدولة العثمانية في عهدة قد بلغت قمة عنفوانها ، واقتبست من أوروبا الناهضة آخر مستحدثات القتال ٠ فماذا كان موقفنـا نحن المصريين المسلمين مع سلطان المسلمين المغرور بقوته ؟ هل خرجنا نستقبله بالأحضان ونهتف بحياته وندعـو له بالعز والتأييد ، لا ٠٠ لم يحدث ٠٠ ولم ننتظر قدومه حتى يجتاز حدود مصر ويأكلها لقمة باردة ٠٠ انما خرج الجيش المصري بقيادة السلطان الغوري ليلتقي به في أعالي الشام ، عملا بنظرية الحرب الوقائية التي تفرض عليك أن تداهم العدو قبل أن يداهمك ، وأبلى الغوري في معركة (مرج دابق) بلاء عظيما ٠٠ وأظهر من شجاعة القلب وفروسـية القتال ، ما جعل هزيمة الترك أمرا وشيكا ٠٠ وأزمع سليم الفرار وادبار ٠٠ لولا الخيانة ٠٠ ذلك أن (سليم) استطاع أن يشتري ذمة اثنين من أعوان الغوري فانحازا الى جيش العدو أثناء وطيس المعركة ٠٠ وانكشف الجيش المصري ٠٠ وذهل الغوري ٠٠ وأصيب

بالشلل من هول الصدمة ، فسقط من فوق حصانه حتى داسته الخيول ، ولم تظهر له جثة ، ولم ينعم بالدفن في المقبرة الفخيمة

التى أعدها لهذا اليوم المحتوم ، وبقيت كما هى تستطيع أن تراها وأنت تتجول فى شارع الأزهر .

ولم يستسلم الشعب المصرى لهذه الهزيمه ، ولم يخنع لسلطان المسلمين الذى جاء يفتح بلدا مسلما تاركا وراء ظهره بلاد أوربا التى كانت أحق وأولى ، وتسلم راية مصر (طومان باى) فى ظرف أسود من قرن الخروب .. فالخزائن خاوية ، والروح المعنوية هابطـة بسبب الخيـانة ، والصراعات المحتدمة بين الامراء والمماليك تغل العزائم ،ومع ذلك ظلت جذوة المقاومة الوطنية حيـة ومشتعلة ، وخرج أبناء حوارى القاهرة خلف القائد الباسل فى محاولة مستميتة لوقف الزحف التركى عند الجبـل الأحمر والعباسـية حتى كلت قواهم ، فتفرقوا فى الشوارع يقتلون كل من يصادفونه من الترك ، ودخل سليم القاهرة دخول الظاهرين بعد معـركة غير متكافئـة عسكريا .. فقد كانت العسكرية المملوكيـة فى طريق الذبول والاحتضار ، بعد أن عبرت مرحلة الفتوة والاقتدار أيـام الحكام الأوائل من أمثال أيبك وبيبرس وقطز وقلاوون الذين أذلوا كبرياء أوروبا فى المنصورة وعكا ، وحطموا الأسطورة المغولية فى عين جالوت ومرج راهط ، وخلف من بعدهم خلف تفرغوا للشهوات والتهتك والخلاعة .. وبات علينا تسديد الفاتورة .

★ **تفريط فى المسئولية :**

ما ذنبنـا نحن المصريين اذا كان أولئك الحكام فرطوا فى المسئولية ، وتركوا الطوابى خربة . والقلاع متهدمة ، والأسطول ضعيفا ، وتشبثوا بحرب الخيول والسيوف ، وفتحوا أبواب الجيش لشراذم المرتزقة ، ورفضوا فتح باب الجيش أمام المصريين ليحملوا شرف الدفاع عن بلادهم (ومرة أخرى نذكر بالحمد والعرفان هذا الثعلب الماكر محمـد على الذى كان أول من خطـا هذه الخطوة

الجريئة) ونعود الى طومان باى الذى ألقى سلاحه ، ولجأ الى احدى قبائل العربان فى البحيرة بعد أن أقسموا له يمين الشرف أن لا يسلموه ولا يخذلوه ·· ولكنهم حنثوا باليمين ·· وباعوا البطـــل الى عدوه بثمن بخس ·· دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ، لأن كل همهم انحصر فى الحصول على حظوة الفاتح الجديد ، وحين دخل الأسد الى وطاق سليم وقف أمامه وقفة البطل الصنديد ، فلم يعتذر ولم يسترحم ولم يتخاذل ·· وقال له قولة المحـــارب الشجاع أنه انما قام بما يمليه عليه واجب الدفاع عن وطنه ·· وبدأت مخايل الاعجاب تبدو على وجه السلطان العثمانى ، وكان يطلق سراحه كى يستعمله فى مشروعاته المقبلة ، لولا خوفه من تلك الروح الثائرة ، والحكام دائما يعملون ألف حساب لمن يحمل بين جنبيه روحا عاليه أو قلبا شجاعا ·· ولا يميلون الى هذا النوع من الأحرار ، فكان قرار اعدامه شنقا على باب زويلة على مشهد من أبناء القاهرة الذين خرجوا عن بكرة أبيهم ليلقوا نظرة الوداع على حاكمهم الشهيد ·

★★ نفس المشهد سوف يتكرر بعد أقل من ثلاثة قرون · ؟ « بس فى الاسكندرية » ·· عندما يقف حاكمها محمد كريم بين يدى الطاغية القادم من فرنسا ، نابليون بونابرت ، بعد أن أدى واجبه ، وفتح نيران طابية قايتباى على الجيش الفرنسى حتى آخـــر طلقة تحشرجت فى زور مدفع هزيل ·· وقبضوا عليه وساقوه الى بونابرت ·· الذى نظر اليه نظرة هى خليط من الاعجاب والمكر وقال له . لقد أخذتك والسلاح فى يدك ؛ ·· وكان لى أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكنك استبسلت فى الدفاع ، والشجاعة متلازمة مع الشرف ·· لذلك أعيد اليك سلاحك ، وأمل أن تبدى للجمهورية الفرنسية من الاخلاص ماكنت تبديه لحكومة سيئة (يعنى حكومة المماليك) ·

حركة ذكية من بونابرت ، لم تصدر عن سلطان المسلمين ، وانما صدرت من قائد عسكرى يعرف أن تقاليده العسكرية تحتم على القائد المنتصر أن يحترم كرامة القائد المنهزم ، ويمكن أن تفهم

هذه الحركة على أنها خدعة مقصودها استمالة المصريين وكسب رضاهم حتى يكفوا عن مقاومة جيش الاحتلال

★ **شهادة براءة :**

★★ **هل قلت مقاومة جيش الاحتلال ؟**

نعم قلتها .. وسوف تقولها معى مئات وآلاف المرات ، لأن هذه المقاومة الشعبية هى شـــهادة البراءة مما علق بنا من افتراءات وأكاذيب .. وما ظنك بشعب لم يهدأ .. ولم يستسلم منذ اللحظة التى هبط فيها جيش الاحتلال على ســاحل الاسكندرية ، حتى اللحظة التى غادروا فيها أرض مصر ، لقد مكثوا فى بلادنا حوالى ثلاث سنوات لم ينعموا فيهـــا بالهدوء أو الراحة كما كان يتخيل بونابرت والذين معه .. لم يمر يوم دون قتال وانقضاض ومطاردة من الاسكندرية ورشيد حتى أقصى نجع فى الصعيد الجوانى .

جاء الفرنسيون مسلحين بأحدث ما أنتجت مصـانع الحرب فى أوروبا .. ومعهم تجربة الحرب فى ايطاليـا .. وخبرة عالية فى فنون التعبئة وادارة المعارك .

ونحن .. ماذا كنا نملك غير الطوب والحجـــارة والسكاكين وغطيان الحلل ؟ نعم كنا نملك ما هو أقوى وأعتى .. نملك روح القتال . والاصرار على المقاومة والتضحية بالنفس من أجل أن نعيش أحرارا ولا نخضع لهؤلاء القوم الذين يختلفون عنا جنسا ودينا ولغة وحضارة (!!) .

★★ هذا السلاح المعنوى لا تستهن به .. فهو الذى حـرك نوازع المقاومة والتحدى فى نفوس المصريين ، وهو الذى زعزع مركز الفرنسيين فى مصر ، وأحرجهم وجعل اقامتهم بها جحيما لايطاق .. ويكفى أن تعرف أن تعداد الحملة أثناء وجودها فى مصر كان يزيد على خمسين الف رجـــل .. وأن الذين عادوا منها أحيـــاء هـم

ثلاثة وعشرون ألفا منهم ثلاثة آلاف بين مريض وجريح ، وأنا أنقل اليك هذه الأرقام من الوثائق الفرنسية الرسمية التى كتبت بعد الحملة ، ولا تصدق مما كان يبعث به بونابرت الى حكومته عن قلة الضحايا ، شأنه فى ذلك شأن القادة الذين يكذبون على شعوبهم وحكوماتهم أثناء المعارك ، الى أن تتكشف الحقائق المذهلة فيما بعد .. ويقول المؤرخ الأمريكى ج . كريستوفر هيرولد صاحب كتاب (بونابرت فى مصر) وناشر تلك الوثائق : لقد أفلح نابليون وهو يملى تاريخ الحملة المصرية ، بالتحايل على الاحصاءات ، أن يوهم الناس بأن خمسة أسداس الجيش الذى أخذه الى مصر عاد الى فرنسا حيا ، وتفسير هذه النتيجة المدهشة التى انتهى اليها بسيط ، وهو أنه أسقط من حسابه الجنود البحريين والملاحين ، أما الأرقام الصحيحة فتروى قصة غير قصته ان فسرت على الوجه الصحيح ، وفى وسعنا أن نقول مطمئنين أن نصف رجال الحملة هلكوا أثناء الحملة سواء فى ساحات القتال أو من المرض ، وأن عدة آلاف آخر فقدوا بصرهم أو أصيبوا بعجز بدنى (مشوهى حرب) .

★ بركان مصر :

ماذا تستخلص من هذه الأرقام ؟

معناها بصريح العبارة أن مصر لم تكن الجنة الوارفة التى عشعشت فى خيال بونابرت ، وجعلته يتخيل نفسه ملكا على امبراطورية شرقية قاعدتها مصر . ولم تكن بلاد النيل المستعمرة التى تذل له وتخضع .. وانما صارت بركانا يقذفه بالحمم حتى ولى الأدبار .

قبل أن ترسو العمارة الفرنسية على شاطىء الاسكندرية ، كان الثغر يغلى من السخط ، ذلك أن أنباء الحملة وصلت الى مصر قبل وصول الأسطول ، وتهيأ الأهالى لمواجهة المصير الذى ينتظرهم ،

لم يخرجوا فى زفة اعلامية تبارك وتهنىء الفاتح الجديد كما فعلوا مع المعز لدين الله الفاطمى قبل ثمانية قرون . وانما خرجوا للقتال والحرب ، فالفرق بين الفاتح الفاطمى والفاتح الفرنسى شاسع . والعصر غير العصر ، والزمن غير الزمن ، والظروف غير الظروف ·· فذاك حاكم عربى مسلم يدعى الانتساب الى البيت النبوى الشريف ·· وقد سبقه عملاؤه الى مصر ومهدوا له أذهان الناس وجعلوا منه المخلص الذى سينقذ البلاد من الفوضى والمجاعات التى عمت مصر بعد وفاة كافور ، وأنه سملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ·· أما هذا الجديد فهو غير مسلم ·· بل لاينتمى الى دين ·· وانما ينتمى الى ثورة كفرت بالأديان ، واصطنعت لنفسها ديانة جديدة لها طقوس ومراسم وقيم وتقاويم ·· فكيف يستقبلونه بغير السخط والوبال (!!) .

★★ كان هذا هو الشعور الذى ساد أهل مصر عندما بلغتهم أنباء الغزو ·· ثم أصبحوا فوجدوا الفرنسيين ينتشرون فى غرب الاسكندرية ـ فارين من العجمى كأنهم جراد منتشر ·· فماذا فعلوا ؟

اليك ما سجله مؤرخ الحركة الوطنية عبد الرحمن الرافعى نقلا عن المصادر المصرية والأوروبية التى عاصرت الغزو :

أما أهالى الاسكندرية فمن ساعة أن ظهرت العمارة الفرنسية عند غروب الشمس ، وقع فيهم الرعب وتولاهم الفزع حين نظروا وجه البحر تغطى بالمراكب ، فبادر السيد محمد كريم حاكم المدينة الى اخبار مراد بك بقدوم العمارة ، وطلب منه النجدة ، وأرسل فى تلك الليلة الى مراد بك ثلاثة عشر ساعيا ، على أن الاسكندريين قد بذلوا ما فى مقدورهم دفاعا عن المدينة فحصنوا الأسوار وشحنوا القلاع بالميرة والذخيرة جهد ما وصلوا اليه ، وفزعوا الى السلاح فحمله القادرون منهم ، وركبوا المدافع العتيقة على أسوار المدينة

استعدادا للكفاح . وعهدوا الى جماعة من الفرسان مناوشة القوات الفرنسية قبل اقترابها ، فحدثت مناوشات بين الفرنسيين والعرب ارتد على أثرها العرب جنوبا وتابع الفرنسيون زحفهم على المدينة .

احتشد الأهالى الذين يحملون السلاح على الأسوار وفى الأبراج التى تتخللها للدفاع ، فلما اقترب الجيش الفرنسى وقبل أن يبدأ هجومه صعد نابليون على الربوة المقام عليها عمود السوارى (وكان العمود قبلى سور الاسكندرية) وشاهد أسوار المدينة ومآذنها وقلاعها ، ولاحظ أن بالسور رغم ارتفاعه وضخامته ثغرات كبيرة ورممت حديثا ترميما يدل على العجلة ، ورأى أهالى الاسكندرية محتشدين بأعلى الأسوار مشاة وركبانا ، رجالا ونساء ، كبارا وصغارا ، ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح ، فأصدر أمره بالهجوم العام ، وأخذ الأهالى يطلقون النار من المدافع المركبة على الأبراج والأسوار إطلاقا من غير احكام . فأحاط الجنود بأسوار المدينة وهاجموها من ثلاث جهات ، الجنرال منو من الغرب حذاء الشاطىء ،والجنرال بون من جهة باب رشيد ، والجنرال كليبر من باب سدره ، واندفعوا الى الأسوار ، فقابلهم الأهالى باطلاق النار اطلاقا شديدا من المدافع والبنادق . وقاومت الأبراج مقاومة عنيفة . لكن المدافعة لم تدم طويلا ، فاقتحم الجنود الأسوار ودخلوا المدينة ووصلوا الى الجهة المسكونة منها ، وكانت مقاومة الأهالى قد فدحتهم بالخسائر ، فهاجموا الناس فى بيوتهم فدافع هؤلاء عن أنفسهم وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين ، وكاد نابليون نفسه يصاب برصاصة قاتلة لولا الحظ الذى نجاه من الموت ، قال « بوريين » سكرتيره الخاص فى هذا الصدد : « دخل بونابرت المدينة من حارة لاتكاد لضيقها تسع اثنين يمران جنبا لجنب ، وكنت أرافقه فى سيره ، فأوقفنا طلقات رصاص صوبها علينا رجل وامرأة من احدى النوافذ ، واستمرا يطلقان الرصاص فتقدم جنود الحرس وهاجموا المنزل برصاص بنادقهم وقتلوا الرجل

والمرأة وخشى نابليون حدوث المذابح فى المدينة وهو الذى أعلن أنه انم جاء لمحاربة المماليك · فأمر جنوده ان يكفوا أيديهم ، واستدعى ادريس بك قومندان السفينة العثمانية التى كانت راسية بالثغر ، وطلب اليه أن يقنع أهل المدينـــة بالكف عن القتـال ويبلغهـم أنه انما جاء لمحاربة المماليك ، فبلغهم القومندان الرسالة ، وكف الأهالى عن المقاومة مذعنين للقوة القاهرة ، وظل السيد محمد كريم يدافع بعد دخول الفرنسيس المدينة معتصما بطابية قايتباى ومعه فريق من المقاتلة الى أن كلت قواه ورأى المقاومة عبثا لايجـدى فكف عن القتال وسلم القلعة ، فتلقاه نابليـون لقاء كريما وأبقاه حاكمـا للاسكندرية ، وبذلك سلمت المدينة بقلاعها وأسوارها ومرافئها الى الفرنسيين ، ولم يكن بد من التسليم ، لأن قوة الدفاع كانت أضعف من أن تقـــاوم جيش نابليون وهو فى عنفوانه وقوته ، وشرعت السفن الفرنسية فى مساء اليوم الذى احتلت فيه المدينة تنزل بقية جنودها وأحمالها فى الميناء الغربية ·

كتب الجنرال برتييه فى رسالته الى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٦ يوليه سنة ١٧٩٨ يصف احتلال الفرنسيين للاسكندرية فقال : « ان الأهالى دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت ، وقد أصيب فى هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته فجرح جرحا بليغا ، وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة ، وأصيب الأدجودان جنرال اسكال Escale بجرح بليغ فى ذراعه من عيـــار نارى ، وقتـل اللواء ماس Mas وخمسة ضباط آخرون » ·

وكتب الجنرال منو الى نابليون يقول : « ان الجنود يستحقون الثناء العظيم على ما بذلوه من الاقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التى كانت تحيط بهم لأن الأعداء (الأهالى) قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم » ·

وقدر نابليون خسائر الجيش الفرنسى فى مهاجمة الاسكندرية فى رسالته الى حكومة الديركتوار بثلاثين الى أربعين قتيلا ، وثمانين الى مائة جريح ، وقدرها بعد ذلك فى مذكراته بثلاثمائة بين قتيل وجريح ، وقدر خسائر الاسكندريين بسبعمائة الى ثمانمائة بين قتيل وجريح ، وأمر بدفن قتلى الفرنسيين حول عمود السوارى باحتفال عسكرى كبير ، ونقشت أسماؤهم على قاعدة العمود ٠

★ رواية الجبرتى :

أما رواية شيخنا ومؤرخنـــا عبد الرحمن الجبرتى عن بداية الغزو فجاءت على النحو التالى : فلما كان يوم الأربعاء العشرون من شهر المحرم سنة ١٢١٣ (يقابل ٤ يوليه ١٧٩٨) وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأنه فى يوم الاثنين ثامن عشر وردت مراكب وعمارات للفرنسيس كثيرة ، فأرسوا فى البحر وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل (الفرنسى محالون) وبعض أهل البلد ، فلما نزلوا اليهم عوقوهم عندهم ، فلما دخل الليل تحولت منهـــم مراكب الى جهة العجمى وطلعوا الى البر ومعهـــم آلات الحـــرب والعساكر ، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح الا وهم كالجراد المنتشر حول البلد ٠ فعندما خرج أهل الثغر ومن انضم اليهم من العربان المجتمعه وكاشـــف (حاكم) البحيرة ٠ فلم يستطيعوا مدافعتهم ، ولا أمكنهم ممانعتهم ، ولم يثبتوا لحربهـــم ، وانهزم الكاشف ومن معه من العربان ، ورجع أهل الثغر الى التترس فى البيوت والحيطان ، ودخلت الأفرنج البلد ، وأنبث فيها الكثير من ذلك العدد ، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمى يدافعون ، وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون ٠ فلما أعياهم الحال وعلموا أنهـــم مأخوذون بكل حال ، وليس عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته ، طلب أهل الثغر الأمان ، فأمنوهم ، ورفعوا عنهم القتـــال ومن حصونهم أنزلوهم ، ونادى الفرنسيس بالأمان فى البلد » ٠

كفــاح الشــعب

الحكم على الشخصية المصرية من خلال المقالات والأبحاث النظرية لن يكون دقيقا ، لأن الكتابات مهما تحرت الدقة لاتسلم من آفة الهوى والغرض والتأثر بعاطفة الكاتب سواء كان متحاملا أو مجاملا ٠٠ ولعل أصدق معيار للحكم على طبائع المصريين هم المصريون أنفسهم ، وتستطيع ان تحكم عليهم من خلال حياتهم اليوميه سواء في عهود العز أو في عهود الانكسار ، وغالبا ما توصف الشخصية المصرية بالوداعة والسلاسة والبعد عن الجلافة والعنف والتهور ، وقالوا ان الزراعة ، وهى المهنة الرئيسية للمصريين ، هى التى طبعتهم بهذا الطابع الوديع ، ولكن ينقض ذلك ان هناك شعوبا تحترف الزراعة النهرية مثلنا ولكنها اشتهرت بالعنف ٠ ووصف المصريين بأنهم ميالون الى الهدوء ليس وصفا معيبا ، ولكن خصومنا يبالغون في تفسير هذا الهدوء الى الدرجة التى تدمغ الشخصية المصرية بالخنوع ، والصبر على مظالم الحكام ، الأمر الذى يشكك فى صحة الأحكام النظرية ودوافعها ، ثم لانلبث ان نكتشف بطلانها اذا نحن رصدنا مسلك الشخصية المصرية فى لحظات التحدى والصدام المباشر مع قوى البغى والطغيان ، عندئذ تجد هذه الوداعة تنقلب بركانا يلقى بالحمم على رؤوس الظالمين ، وتكتشف ان هذا الهدوء الظاهرى يخفى تحته روحا أبية ، وهمة عالية ، ونفسا كريمة تستهين بالحياة الدنية ، ولاتخدعها المغريات للتفريط فى القيم والمبادىء والمثل العليا التى تؤمن بها ٠٠ وهو يأكل العيش الحاف والجبن القريش ان وجده ، ويرضى بالبصل والكرات ، ولا يرضى التنازل عن شرفه ولو قدمت له كنوز الأرض ، وتاريخ الحملة الفرنسية على مصر يشهد بذلك ، وقد قلت لك ان الحملة

قوبلت من لحظة هبوطها الاسكندرية بالتمرد والسخط والمقاومة العنيفة الى ان عادت الحملة الى بلادها مجللة بالفشل والخسران ، ولكن عيبنا اننا عندما نتحدث عن المقاومة الشعبية ضـــد الوجود الفرنسي ، لانتحدث الا عن ثورة القاهرة فى أكتوبر ١٧٩٨ وكأن القاهرة تحتكر كل شيء حتى التاريخ « !! » مع ان الشعب المصرى كله انتفض انتفاضة عارمة في وجه جيش الاحتلال ، ولقى جنـــود فرنسا المقاومة العنيفة فى كل الطرق التى مروا بها على امتداد القطر المصرى ، وفى ذلك يقول مؤرخنا عبد الرحمن الرافعى : ان من يتتبع سير الحملة والمقاومات العنيفة التى لقيهـا الجيش الفرنسى من المصريين ، يعجب لشدة مقاومة الأمة ، واستمرار هذه المقـاومة ، وانفساح مداها فى أنحاء البلاد ، حتى كأن ثورة عارمة قد اندلعت فى وجه الفرنسيين ، وامتد لهيبها الى كل مكان ، ولو قلبت صحائف الحركة القوميـة المصرية منذ بونابرت ، لما وجدت لهذه المقـاومة شبيها سوى ثورة ١٩١٩ .

ان الحملة الفرنسية هزت أعصاب الأمة فاخذت تنفض عنهـا غبار الجمود الذى خيم عليها منذ قرون . لقد استثارت الحملة روح القومية ، وأهاجت شعور المقاومة الأهلية فبدأ المصريون يشعرون ان لبلادهم مركزا ممتازا فى العالم ، وان لهم كيانا يدعوهم للمحافظة عليه ، ان شعورا طبيعيا طاف بالنفوس واستفزها للدفاع عن كيان البلاد فكان من نتائج هذا الشعور سريان روح المقـاومة فى البلاد كلها . ولقى الأهالى ضروب العنت والارهاق والشدائد والأهوال بسبب المقاومة .

مقاومة تلقائية :

ولو تتبعت مسيرة الحملة الفرنسـيه فسـوف تجد ان هذه المقـاومة نشـأت تلقائية بدون قيادة رسمية ، وبدون تعليمـات

أو قرارات حكومية ، بل كان الانفصال بين الشعب والحكومة من أبرز ملامح هذا العهد ، فقد كان يدير شئون البلاد اثنان من أمراء المماليك هما . مراد بك كذاب الزفة الذى يتقن فن التهويش والبكش ، والثانى ابراهيم بك وكان بارعا فى الدهاء ولكن لحسابه الشخصى ابقاء على حياته ، فلما استيقظ أهالى الاسكندرية على جنود الاحتلال يسيرون فى شوارعها كالوعول الضارية لم ينتظروا تعليمات من أحد ، وأخذوا على عاتقهم مقاومة هؤلاء الغرباء بكل عنف ، والتحموا مع القيادة المحلية ممثلة فى حاكمها محمد كريم فادار المعركة بمنتهى النزاهة والشرف والتجرد ، ورغم ان نابليون أراد أن يستميله بعد ان عفا عنه ، الا ان الرجل كان له من اسمه نصيب ، وأبى عليه كرمه ان يخون الأمانة ، وظل يعمل فى السر ضد قوات الاحتلال ، ينظم الصفوف ، ويبعث بالرسائل الى القاهرة يستنجد بحكامها ويحثهم على التصدى للغزاة عندما يتقدمون نحو العاصمة ، ولسوف تقع هذه الرسائل فى يد نابليون بعد ان يحتل قصر مراد بك فى الجيزة ، ويكتشف ان هدوء محمد كريم كان خدعة ، وان وداعته كانت غطاء يخفى تحته روح هذا الشعب الأبى .

هنا .. وفى تلك اللحظة المفاجئة من تاريخ الأمة المصرية ، ولدت زعامة وطنية فى قلب المعارك ، زعامة لم تفرضها الاستانة ، ولم تصنعها قرارات علوية من حاكم ، وانما خلقت من وقائع الكفاح الوطنى ، وفى هذا اليوم المجيد استخدم المصريون السلاح الذى اشتهروا به من قبل ومن بعد .. سلاح العصيان المدنى الذى صار درسا تتعلمه الشعوب المتطلعة الى الحرية واليك الدليل :

تجريدة :

بعد ان غادر نابليون الاسكندرية فى طريقه الى القاهرة ، ترك الجنرال « كليبر » على رأس الحامية الفرنسية ، والى جواره الجنرال

« مينو » في رشيد ، لم يكن كليبر اداريا بقدر ما كان عسكريا يفضل الحياة في وطيس المعارك ، ولم يكن « مينو » هذا ولا ذاك ، ولكن كليبر أصيب في رأسه بطلق ناري من جامع اسكندراني ، مما جعل بونابرت يؤثر بقاءه في الاسكندرية . واحتمل كليبر على مضض ، وبقي في الثغر يعاني من سخط أهلها وحرب العصابات التي يشنونها ضده جنوده ، وذات يوم أمر كليبر بتجهيز تجريدة عسكرية تستطلع منطقة البحيرة ، وكان خط سير التجريدة يبدأ من الاسكندرية الى دمنهور ثم تعود شمالا الى رشيد ومنها الى الاسكندرية عن طريق أبو قير وبدأ الجيش في اعداد الماء والزاد والجمال التي تحمل هذه المؤن أثناء السفر ، وخرج الضباط الى أسواق الاسكندرية فاذا بها خاوية من قرب الماء ومن الطعام ومن الجمال « !! » لم يجدوا جملا واحدا يختال في الشوارع ولم يجدوا تاجرا يبيع لهم مايرغبون فيه .. لقد اختفت الجمال وكأنما انشقت الأرض وابتلعتها ، وخرجت الحملة على هذه الحال المهينة لتخوض طرقا وعرة في صحراء محرقة وتحت لهيب شمس يوليو .. ولم تكد تبتعد عن أسوار الاسكندرية حتى ظهرت الجمال في الشوارع وكأنما انشقت الأرض وأخرجتها .. وبينما كانت الحملة تشق طريقها في تلك الأصقاع الخاوية كان العربان يطاردونها بطلقات الرصاص ثم يهربون الى داخل الصحراء .. وكانت صدمة لأبناء فرنسا الذين أغراهم بونابرت بامتلاك الحدائق الغناء على ضفاف النيل .. وعندما وصلت الحملة الى مشارف دمنهور وجدوا أهلها يتلمظون وينتظرون قدومهم ليقدموا لهم التحية الواجبة في مثل هذه الأحوال : مقذوفات حجرية .. و عندئذ فتح جنود الحملة نيران مدافعهم لتشتيت أهالي دمنهور .. ثم الانسحاب والعودة الى الاسكندرية دون اكتمال المسيرة بعد ان سقط منهم ثلاثون فرنسيا بين قتيل وجريح .

لم يكن ضباط الحملة وجنودها يتوقعون هذا الاستقبال السيء من شعب مشهور بالوداعة والهدوء وخفض الجناح أمام

الطغاة ·· بل كانوا ان المصريين قد أخلدوا الى الطاعة ·· واستكانوا ·· وصاروا أعوانا وأنصارا للثورة الفرنسية وأدرك قائد التجريدة الجنرال « ديموى » ان أهالى دمنهور كانوا على علم مسبق بمقدمه ·· ولابد ان تكون هناك مخابرات واتصالات سرية بين قيادة المقاومة الشعبية فى الاسكندرية وبقية المدن والقرى التى مرت بها الحملة ، ولكن الذى حز فى نفس الجنرال ربيب الثورة الكبرى انه لم يجد خلال رحلته هذه مصريا واحدا يحمل الشارة الفرنسية ذات الألوان الثلاثة « !! » ·

●● ماذا كان يظن هذا الجنرال المخبول ؟

هل كان ينتظر من الفلاحين المصريين ان يخرجوا لاستقباله حاملين أعلام الثورة هاتفين بشعارات العدالة والحرية والمساواة ؟

وأين هى العدالة التى جاءنا بها الفرنسيون وقد كان أول القصيدة كفرا · وكان أول قرار أصدره بونابرت هو فرض غرامه مالية فادحة على أهالى الاسكندرية عملا بالسياسة الفرنسية المفلسة التى تفرض على البلاد المفتوحة ان تتحمل نفقات غزوها ، مثلما يدفع التلميذ نفقات تعليمه والمريض تكاليف علاجه « ! » وسلك نابليون فى نهب أموال المصريين مسالك لاتقل ظلما وبشاعة عن أساليب الترك والمماليك ، فما الفرق بين هؤلاء وأولئك ؟ ولا تتعجب اذا قلت لك ان بونابرت هذا ـ سليل الحضارة الأوربية الحديثة ـ كان قرصانا كبيرا يضارع عتاة القراصنة وشيوخ المنسر ، وقبل ان يأتينا عرج على جزيرة مالطة ونهب ثرواتها ، واستولى على كنوزها وتحفها الذهبية ، ولم تسلم من أصابعه السحرية مقتنيات كنيسة القديس يوحنا المرصعة بالجواهر ، وكلف العالمين : مونج » و « بورتلليه » باقتحام دار سك النقود وسرقة مابها من أموال ، وقام بصهر الأوانى الذهبية والفضية وباعها فى الأسواق وتوفر له من ذلك سبعة ملايين فرنك · ولكنها لم تكن كافية لدفع أجور رجال الجيش والأسطول

بعد وصوله الى مصر ، لذلك بادر نابليون بفرض ضرائب فظيعة على المصريين ، وفرض على التجار دفع قروض غير مردودة ، واستولى على ايرادات الجمارك .. بل كان يسرق التحويلات المالية التى كان يبعث بها جنود الحملة الى زوجاتهم وأولادهم فى فرنسا « !! » .

●● هذا هو رسول الحضارة الأوروبية الذى جاء يبشرنا بالخلاص من ظلم المماليك ، ويفرش أرضنا برياحين العدالة والمساواة والحرية ، ولقد أثبت الشعب المصرى انه لم ينخدع أبدا بهذه الشعارات المزيفة وأدرك ما ينطوى عليه هذا الفاتح الأجنبى من دجل وبكش .. فلم يصدقه .. وانما أعلنها عليه حربا مقدسة .

نزع السلاح :

بعد فشل حملة الجنرال « ديموى » اعتزم نابليون تأديب أهالى البحيرة والتنكيل بهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم ، فأجرى تغييرات فى القيادات العسكرية . وأمر بتسيير حملة جديدة لنزع سلاح أهالى دمنهور واعدام خمسة من أعيانهم على ان يكون من بينهم واحد من العلماء ، واعتقال خمسة وعشرين رجلا ونقلهم الى القاهرة كرهائن ، وتشديد القبضة العسكرية على رشيد حتى لاتتمرد ، وكان أهلها قد أقاموا من بينهم حكومة محلية على أثر هروب حكامها المماليك ، ومع ذلك ظل حاكمها الجنرال « مينو » قلقا على مصيره لايضمن استمرار حالة الهدوء الظاهرى ، وكان يشعر فى قرارة نفسه انه سيلقى حتفه على أيدى أبناء رشيد ، وعبر عن ذلك فى رسالة الى صديقه الجنرال « برتييه » رئيس الأركان « ان الذى يهمنى شخصيا الا أبقى هنا طويلا ، فانك تشعر انى أوثر مائة مرة ان أكون على رأس فرقتى على ان أدفن فى هذه المدينة ، انى حضرت الى مصر لأكسب الفخر ، لا لأجمع الضرائب » .

كانت مهمة « مينو » فى غاية الصعوبة ، فقد كان عليه ان يعمل على تأمين خطوط المواصلات الفرنسية بين رشيد والاسكندرية وان

يؤمن الملاحة النهرية بين رشيد والقاهرة ، وان يضمن هدوء الأهالى وعدم تمردهم على الوجود الفرنسى ثم تضاعفت هذه الصعوبة بعد تدمير الأسطول الفرنسى فى خليج أبو قير ، وقد شاهد أهالى رشيد النيران وهى تنبعث من السفن الفرنسية ، فارتفعت روحهم المعنوية وتشجعوا على توجيه ضربات قاتلة للجنود الفرنسيين ، مما جعل « مينو » يصارح نابليون بهذه التخوفات ويقول له : « لا أكلمكم عن نكبة اسطولنا ، وحسبي ان أقول انها فظيعة ، وليس لدى الآن تفصيلات عنها لصعوبة المواصلات بين رشيد وأبو قير بطريق البر ، وصعوبة الخروج من البوغاز الى البحر ، لا أدرى مبلغ تأثيرها فى نفوس الأهالى ، على انى من جهتى سأبذل كل ما فى وسعى لتخفيف أثرها وسأستعمل مع الأهالى سياسة اللين والمجاملة والتودد مع الحكمة والحزم ، وبالجملة فان أهالى هذه الجهة متصفون بالوداعة ، لكنهم على جانب كبير من الدهاء والمكر .. » .

وتوالت الأحداث لتثبت للقائد الفرنسى كم كان مخدوعا فى حكمه الظاهرى على وداعة المصريين ، وان هذا الهدوء الظاهرى قد تحول الى سخط عارم ومقاومة عنيفة للغزاة الأجانب . وان طائف الثورة الوطنية قد طاف بمختلف البلاد فاذا أخمدت فى جهة انبعثت فى جهة أخرى ، وكما وصفها الجنرال « رينبو » بانها كانت مثل حيه ذات مائة رأس ، كلما أخمدها السيف والنار فى ناحيـة ، ظهرت من ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد الى بلد آخر ..

لقد تحمل الفلاحون المصريون عبء مقـاومة الاحتلال من غير ترتيب أو تنظيم .. كانوا يترصدون الفرق والكتائب الفرنسية وهى تتحرك بين المدن والقرى فينهالون عليها تقتيلا دون حساب للعقاب والانتقام .. وبينما كانت كتيبة فرنسية تعبر الطريق لتوصـيل البريد من رشيد الى القاهرة ، خرج أهالى « السالمية » وقتلوا من

أفرادها ثمانية جنود ، فما كان من « مينو » الا أن اقتحم القرية وأضرم فيها النار وقتل من أبنائها تسعة ، ظنا منه ان الحرق والقتل سيجعل أهلها « يعتبرون بهذا الدرس كما يعتبر به أهالى وادى النيل» وكتب منشورا وصف فيه ما وقع لأهالى السالمية ويتهدد البلاد بمثل هذا العقاب ان وقع اعتداء على جنوده ·

● فهل تأثر الأهالى بهذا التهديد ؟ وهل هبطت روحهم المعنوية خوفا من العقاب ؟ وهل أخلدوا الى الطاعة والاستسلام ؟ اليك الجواب :

شباس عمير

فى يوم ١٦ يوليو ١٧٩٨ خرج الجنرال « مينو » بنفسه على رأس كتيبة لتفقد الأحوال فى شمال الدلتا وعبر الى الضفة اليمنى للنيل ؟ وما ان وصل الى قرية شباس عمير حتى خرج الأهالى لاستقباله بما يليق بمكانته « !! » ·

وكانت القرية محاطة بسور تعلوه أبراج تحصن فيها الأهالى واخذوا يصبون نيران بنادقهم على الضيف الجليل ، وأصيب فرسه برصاصة فخر صريعا وأدرك « مينو » حرج موقفه والاهانة التى لحقت به فصمم على اقتحام القرية ، ودارت معركة رهيبة بين الفرنسيين والفلاحين المتحصنين فى الأبراج · ونجح الفرنسيون فى اقتحام السور ، ولم يجد الأهالى بدا من اخلاء الأبراج ماعدا برج واحد ظلت النيران تنطلق منه ·· فلما دخل الليل أمر الجنرال باشعال النار فى القرية كلها ·· وتحولت شباس عمير الى كتلة من اللهب الأحمر فى سواد الليل ، وهب اهالى القرى المجاورة لنجدة اخوانهم وأمر مينو باطلاق النار فى الظلام بطريقة عشوائية على الجموع الثائرة واضطر مينو الى الانسحاب وعاد بكتيبته الى سنهور بعد ان فقد ١٩ جريحا وعددا من القتلى أبرزهم الرسام « جولى » الذى أصيب برصاصة أفقدته القدرة على السير ، فتركه اخوانه وولوا

الادبار ، وعاد مينو الى رشيد ليكتب الى نابليون بتفاصيل ماجرى له قائلا : « ان التوغل فى هذه الجهات أمر محفوف بالمخاطر ، لأن معظم القرى فى تلك البلاد محصنة ولأن اخضاعها يستلزم قوة من سبعمائة الى ثمانمائة جندى مسلحين بالمدافع » وكتب الى صديقه الجنرال « برتييه » يعترف بأنه « كان مخدوعا فى رحلته هذه ، وكان متأثرا من المقابلة الحسنة التى قوبل بها فى بعض القرى ولكن حادثة شباس عمير جعلته أكثر احتراسا فلا يأخذ الأمور بظواهرها ان كان يظن الا ظنا » .

لقد بدأ « مينو » يقترب من الشخصية المصرية ويفهمها على حقيقتها من خلال الاحتكاك المباشر والرؤية العينية ، وليس من خلال الأفكار التى قرأها فى كتب الرحالة الأوروبيين ، ولعله قد ادرك الآن ان الهدوء المصرى الذى تحدث عنه هؤلاء قد تحول الى شراسة ، مما جعله أكثر احتراسا ، وان عليه الا يأخذ الأمور بظواهرها .. ولم يسأل « مينو » نفسه لماذا حدث هذا التحول فى الطباع المصرية ، ولماذا انتفض الفلاحون المصريون فى كل شبر لمقاومة الغزاة الأجانب ، لقد حاول بعض قادة الحملة فهم هذا الجانب الخفى من الشخصية المصرية ومنهم الجنرال « ريبو » فى كتابه عن التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية اذ يقول :

« ان مصر قد فوجئت بالحملة الفرنسية فأخذت تنتفض وتحارب للتخلص من قبضة الفاتح الحديدية ، لقد كنا نرابط فى مصر ونحتلها احتلالا عسكريا ، وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه ، فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الاقناع ، وكان اختلاف الدين واللغة والطباع والعادات مما يجعل الامتزاج بين الغالب والمغلوب عسرا بعيد الاحتمال فكانت سياستنا قائمة على اكراه الشعب على الأذهان بالحزم مرة ، والقوة مرة ، وبالقوة كل ثورة ، ومكافأة من يخدم السلطة الفرنسية ، ولادراك هذه الغاية وزع بونابرت الجيش على مختلف أنحاء القطر

لاخضاعهم ، وجعلها موضوع مراقبة دقيقة وكان قواد الفرق فضلا عن اختصاصاتهم الحربية ، يتولون الاشراف على الأعمال الادارية والمالية في مديرياتهم ويراقبون جباية الأموال والغرامات ويشرفون على مجالس الدواوين في الأقاليم حتى لاتتعدى اختصاصاتها » .

ادعاء كاذب :

هذه المقاومة الوطنية الشريفة للاحتلال الفرنسي ، هي في نظر بعض كتاب الغرب دليل على قصر نظر المصريين ، لأنهم رفضوا الامتثال لفاتح أوروبي جاء يحررهم من حكم الطغاة الترك والمماليك ، وان المصريين لم يفعلوا ذلك الا لأنهم ألفوا العبودية واستمرأوا الاستبداد ، وهو ادعاء كاذب لايقوى على الصمود أمام الأهداف الحقيقية للحملة الفرنسية وهي احتلال مصر لتكون قاعدة فرنسية لضرب المصالح الانجليزية في الهند فهل كان المطلوب من المصريين ان يقبلوا هذا الاحتلال الأجنبي لمجرد ان نابليون قال في منشوراته انه انما جاء الى مصر لتحريرها من طغيان المماليك ؟ لقد اعترف نابليون نفسه في مذكراته التي أملاها في منفاه بسانت هيلانة انه كان مخادعا .. وانه كان دجالا وانه لاملام على السياسي ان يستخدم الدجل للوصول الى أغراضه « !! » واذا كانت منشورات نابليون قد تحدثت عن الحرية والتحرر وغيرها من الشعارات التي رفعتها الثورة الفرنسية . فكيف يلام المصريون لأنهم هبوا للدفاع عن حريتهم واستقلالهم ومقاومة الغزاة الفرنسيين ؟ لقد زعم نابليون انه جاء ليعلمنا الحرية .. حسنا .. لقد تعلمنا .. وكان علينا ان نعمل بما تعلمناه ونتصدى للاحتلال ومظالمه .. فما هو العيب في ذلك ؟ :

لقد أصاب مؤرخنا الجليل عبد الرحمن الرافعي كبد الحقيقة عندما ناقش هذه القضية مناقشة علمية وموضوعية في كتابه عن

تاريخ الحركة القومية فى مصر فقال ان نابليون قد استثار الروح القومية فى منشوراته وبياناته للمصريين على انه فى الوقت نفسه قد أثارها باعتدائه واعتداء جنوده على البلاد وأهلها لأن هذه الاعتداءات أثارت كراهية الأمة للاحتلال الفرنسى وحملتها على مقاومته بكل الوسائل ،فكانت هذه المقاومة هى النواة التى انبثقت منها الروح القوميـة المصرية ، ومهما قيل فى مبلغ ما كانت عليه الأمة المصرية فى ذلك الحين من التأخر فى العلم والمدنية ، فأن الحملة الفرنسية ، وما اهتاجته فى نفوس المصريين من روح المقاومة قد هزت أعصاب الأمة هزة عنيفة أزاحت عن أبصارها شيئا من الغشاوة التى رانت عليها من خلال العصور .

أراد نابليون اذن ان يجتذب قلوب المصريين ويتودد اليهم يكسب ثقتهم لأنه كان على يقين انه مالم يفز بثقتهم وميلهم فلا يستطيع ان ينشىء على ضفاف النيل دولة عربية تخضع لحكمه مهما أوتى من قوة الجند والسلاح ، لكن نابليون قد خاب فى تحقيق هذا الأمل ، وكان اخفاقه راجعا الى ان الأمة المصرية لم تذعن للحكم الفرنسى ولم تطمئن اليه بحال من الأحوال ، ولم تخدع فى حقيقة الأغراض التى كان يرمى اليها نابليون من الحملة ، وتلك فضيلة تدل على مبلغ الحيوية الكامنة فى الأمة ، والواقع ان نابليون مع تلك الوعود التى كان يمنى بها المصريين فى منشوراته لم يكن يقصد فى الحقيقة الا فتح مصر واخضاعها لتكون أداة لتحقيق أطماعه فى الشرق والغرب ، فالحملة الفرنسية قامت على أساس الفتح والاستعمار ، ومهما تعددت أساليب القوة والفتح فالأمم التى تشعر بشىء من الحياة والكرامة تأبى ان تكون مطية لأهواء الفاتحين .
ونظام الحكم الذى وضعه نابليون فى مصر ، لم يكن ليصرف نظر المصريين عن ان يروا فى الحملة الفرنسية اعتداء دولة أجنبية على

بلادهم بدون حق أو مسوغ فهذا الاعتداء في ذاته قد آثار الروح القومية في نفوس المصريين ، وتلك أول مرة في تاريخ مصر الحديث ظهرت فيها الروح القومية المصرية لمقاومة اعتداء دولة أجنبية .
والواقع انك اذا تتبعت تاريخ الحملة الفرنسية تجد انها سلسلة مقاومات مستمرة من جانب المصريين ضد الحكم الفرنسى ، بحيث لم يستقر للفرنسيين حكم ، ولم يهدأ لهم روع في السنوات الثلاث التي قضوها في مصر .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٨١٥٥

ISBN — 977 — 01 — 4902 — 0

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

2.096
2
3132
32
06646273